# الفصل الثالث
# أفول نجم إمارة بني مزيد

- الصدام مع الخلافة العباسية.
- تدخل دبيس بن صدقة في صراعات البيت السلجوقى.
- تحالف دبيس بن صدقة مع الصليبين.
- تحالف دبيس بن صدقة مع الأراتقة والأتابك عماد الدين زنكى.
- نهاية الإمارة.

إن الدول مثل البشر، تبدأ ضعيفة ثم تقوى وتشب حتى تبلغ أقصى درجات قوتها ونفوذها، ثم تضعف وتضمحل وتموت، ولم تكن إمارة بنى مزيد بدعاً من الدول، فجرت عليها قوانين الدهر وأحكامه، وكما توافرت ظروف ومسببات ساعدت على توفير المناخ المناسب لقيام الإمارة، فقد توافر أيضاً عدة عوامل ساعدت على اضمحلالها وانهيارها.

وقد حدد ابن خلدون[١] عمر الدولة بنحو مائة وأربعين عاما، وإلى حد كبير يكاد ينطبق هذا التحديد على عمر إمارة بنى مزيد، التي عاشت نحو مائة وثمانية وثلاثين عاما، عاصرت خلالها أحداثاً جساماً ألمت بالمنطقة العربية، وتركت آثاراً سلبية تركت بصماتها على الإمارة، وقد تنوعت هذه العوامل بين سياسية واقتصادية واجتماعية، وسنبدأ بدراسة العوامل السياسية؛ ذلك أنها ابرز العوامل التي ساعدت على تضعضع كيان الإمارة وانهيارها.

الصدام مع الخلافة العباسية:

ظهر لنا بوضوح في الفصل الأول مدى الضعف الذي كانت تعانى منه الخلافة العباسية، وهو ما ساعد على فقدانها لسلطانها السياسي، وبلغ ذلك الضعف ذروته بسيطرة البويهيين الشيعة على السلطة في بغداد عام ( ٣٣٤هـ / ٩٤٥م )، وتبع ذلك تفكك الدولة العباسية واقتطاع الفاطميين جزاءً كبيراً منها، وكادت تنتهي وتصبح أثراً بعد عين على يد البساسيرى لولا إنقاذ السلاجقة لها[٢].

ورغم سنية السلاجقة إلا أن حال الخلفاء لم يتغير كثيراً، فلم يتعد سلطانهم أبواب قصورهم، وما مَن به سلاطين السلاجقة عليهم من إقطاعات[٣]، ولم يشغلوا أنفسهم كثيراً بأمور السياسة نظراً لما فرض عليهم من قيود، مثل إجبار الخليفة القائم بأمر الله

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) Syed Amer ali: A history of Saracens , p p 288 – 311 , Bernard Lewis: the Arabs , p 144 , 145.

(٣) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢١– ٢٣.

( ٤٢٢ – ٤٦٧هـ / ١٠٣٠ – ١٠٧٤م )[١] على مصاهرة السلطان طغرلبك[٢] مما جعل الخليفة يزهد في الحياة العامة وينقطع عن أمور الدنيا بالذهد والعبادة حتي توفي[٣].

أما الخليفة المقتدى بأمر الله( ٤٦٧-٤٨٧هـ / ١٠٧٤ – ١٠٩٤م)[٤]، فلم يكن أحسن حالاً ممن سبقه من الخلفاء، وبلغ الأمر بالسلطان ملكشاه[٥] إلي إصداره قرار بإخراج الخليفة المقتدي بامر الله من بغداد؛ ويرجع ذلك إلي أن الخليفة المقتدي بالله كان له ولدان هما المستظهر بالله والآخر هو أبو الفضل جعفر بن بنت السلطان لكن الخليفة جعل ولاية العهد في المستظهر لأنه الأكبر وهو أمر لم يعجب السلطان وأراد إجبار الخليفة علي تغيير ولاية العهد وجعلها في الأمير الفضل لكن المنية عاجلت السلطان فلم يتم له ما أراد [٦].

أما الخليفة المستظهر ( ٤٨٧ – ٥١٢هـ / ١٠٩٤ – ١١١٨م)[٧] فلم يستطع أن يوسع من النفوذ السياسي للخلفاء العباسيين، زاد على ذلك وقوفه عاجزاً أمام صراعات آل سلجوق حتي أن بغداد نفسها قد أصبحت مسرحاً للصراع بين أبناء ملكشاه، ولم يكن الخليفة يملك سوى الدعاء على المنابر لمن يتغلب منهم، ولم يستطع

---

(١) عن الخليفة القائم بأمر الله راجع الفصل الثاني ص ٧٢، حاشية ١.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ص ٢١٨– ٢٢٣؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٢٠ – ٢٢؛ الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ص ٢١– ٢٣ .

(٣) السيوطى تاريخ الخلفاء، ص ٤١٨.

(٤) الخليفة المقتدى بأمر الله: هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم، تولى الخلافة بعد جدة القائم عام ( ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م ) وله من العمر تسعة عشر عاما، توفي عام ( ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ) ( ابن الطقطقا: الفخرى، ص ٢٩٢؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٣ ).

(٥) السلطان ملكشاه: هو أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل السلجوقي. تولي منصب سلطنة السلاجقة في الفترة بين عامي ( ٤٦٥هـ/١٠٧٢م) و(٤٨٥هـ/١٠٩٢م) و في عهده بلغت سلطنة السلاجقة أقصي درجات قوتها. لمزيد من التفاصيل عن ملكشاه راجع: ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ٤،ص ص ٣٧٠-٣٧٥.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٦٢؛ ابن الطقطقا: الفخرى، ص ٢٩٦؛ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ٤،ص ص ٣٧٠-٣٧٥؛ فتحي أبو سيف: المصاهرات السياسية في العصرين الغزنوي والسلجوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦، ص ٩٠، ٩١.

الثاني ص ٧٣، حاشية ٤ . ا عن الخليفة المستظهر راجع الفصل ) ٢ (

أن يمنع الجند من نهب بغداد، وبعد أن استقرت السلطنة لصالح السلطان محمد بن ملكشاه لم يتغير وضع الخليفة كثيراً، ولم يتعد نفوذه السلطان الروحي، وهو ما بقى للعباسيين بعد فقدانهم نفوذهم السياسي منذ زمن بعيد[١]. ثم اعتلى الخليفة المسترشد بالله ( ٥١٢ – ٥٢٩هـ / ١١١٨ – ١١٣٤م)[٢] سدة الخلافة، وقد اختلف كثيراً عمن سبقه من الخلفاء العباسيين، فقد صمم على استرداد هيبة الخلافة ونفوذها السياسي، وكان ذلك يحتم على الخليفة انتزاع تلك الأهداف من يد السلاجقة، واستلزم ذلك قوة عسكرية، ولما كانت القوة العسكرية معدومة فقد اتجه إلى تقليم أظافر القوى المحلية كنوع من اختبار القوة بجيش مكون من جنود السلاجقة وعامة بغداد، ثم استطاع فيما بعد أن يكون جيشاً خاصاً به.

وكانت إمارة بنى مزيد من أهم حقول الاختبار لقوة الخلافة المتنامية، ولم تكن الخلافة هي البادئة بالاصطدام ببنى مزيد، ولكن جاء ذلك من قبل الأمير " دبيس الثاني بن صدقة"، وقد ساعد على احتدام الصراع بين الطرفين أمران: أولهما ما ذكرناه من علو همة المسترشد وتطلع نفسه إلى استعادة هيبة الخلافة، أما الأمر الآخر فهو ما أصاب الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" من صدمة نفسية تركت في نفسه أحقاداً وضغائن من جراء مصرع أبيه في موقعة النعمانية على يد جند السلطان محمد بن ملكشاه عام ( ٥٠١ هـ / ١١٠٧م)، ثم قطع رأسه و التشهير بها في بغداد[٣]. ويبدو أن الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" قد وقر في نفسه أن للخليفة المستظهر – والد الخليفة المسترشد بالله - نصيب من جرم مقتل الأمير "صدقة الأول بن منصور "؛ لأنه لم يمنع التشهير برأسه في بغداد، و تناسى دبيس أن الخليفة لم يكن له من الأمر شئ، ولا حول له ولا قوة.

بهذه الأفكار عاد دبيس من بغداد إلى الحلة، وقد أخذ الصراع بين الطرفين

---

(١) حول تفاصيل صراعات البيت السلجوقى وموقف الخليفة المستظهر منها راجع أحداث الفترة الممتدة بين عامي ( ٤٩٠ – ٤٩٧هـ / ١٠٩٦ – ١١٠٣ م ) عند ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠.

عن الخليفة المسترشد راجع ص ٥٣، حاشية ٤ .) ١ (

(٣) ابن أبى الدم الحموى: التاريخ المظفرى، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم، ٦٠٤، ص ١٨٥؛ عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢١٤.

يتصاعد بصورة تدريجية، منذ عودة الأمير " دبيس الثاني " إلى بلاده عام ( ٥١١هـ / ١١١٧م )[١]. وجاءت البداية من قبل دبيس حين قبل إجارة الأمير أبو الحسن بن المستظهر، الذي فر من بغداد؛ خوفاً من بطش الخليفة المسترشد؛ لما بدر منه من طمع في منصب الخلافة، هنا سارع الخليفة المسترشد بالله بإرسال الرسل إلى الحلة طالبين من الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" أمرين أولهما طلب بيعة دبيس للخليفة المسترشد، أما الطلب الآخر فهو تخلى دبيس عن جوار الأمير الحسن وتسليمه، غير أن الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" لم يكن له أن يتخلى عن مبدأ الجوار العربي، لذلك أكتفي بإجابة الطلب الثاني دون الأول[٢].

ولم يكن رد الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" ليرض الخليفة المسترشد بالله الساعي إلى استعادة مجد الخلافة، لذلك قرر الانتقام من دبيس بحرمانه من دار أبيه في بغداد أو بتعبير أدق "سفارة بنى مزيد في بغداد "، ومن الواضح أن دبيس لم يكن قد استعد للمواجهة؛ لذلك سلك طريقاً يشوبه الدهاء؛ ذلك أنه اتجه إلى فقهاء السنة من الأحناف – فقهاء دار الخلافة - يستفتيهم في مدى صحة تصرف الخليفة بهدم دار الأمير "صدقة الأول بن منصور " وضمها إلى مسجد قصر الخلافة بغير رضى مالكها، فجاءت فتواهم بعدم شرعية هذا التصرف، ومع جواز هدم المسجد وإعادة الدار إلى صاحبها[٣]. هنا جنح الخليفة المسترشد بالله إلى ترضية الأمير "دبيس الثاني بن صدقة" فأرسل إليه الخلع والتقليد بولايته علي بني مزيد في موكب عظيم، حتي وصف ذلك اليوم بأنه كان مشهوداً[٤].

ويرى البعض أن هدم دار الأمير "صدقة الأول بن منصور " في بغداد لم يكن سوى تعبيراً عن رغبة الخليفة المسترشد بالله في القضاء على ظاهرة اللجوء السياسي

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٣٣؛ الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٥؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٦٨٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ١٩٨؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٣٧؛ ابن كثير البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٦٨٣ ؛ ابن الطقطقا: الفخري، ص ٣٠٢.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ١٩٨.

(٤)نفسه، ص ١٩٩.

إلى بنى مزيد[١] ومهما يكن من أمر فلم يسع الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" إلى تصعيد الموقف وجنح إلى إرضاء الخليفة، ففي ذلك الوقت خرج الأمير الحسن بن المستظهر عن جوار دبيس واظهر شق عصا الطاعة علي أخيه الخليفة المسترشد بالله وهاجم مدينة واسط، فأرسل الخليفة إلي دبيس يطلب منه القضاء علي حركة الأمير الحسن وتسليمه إلي دار الخلافة. فأرسل دبيس قوة عسكرية فرقت الجموع عن الأمير الحسن وألقت القبض عليه فحمله دبيس إلي بغداد بنفسه وكان ذلك في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م)[٢] وعد ابن العديم هذا التصرف من نقائص دبيس [٣]. إلا أن الواضح أن الخبر قد وصل إلى ابن العديم نقاصاً، ولم يتضمن خروج الأمير الحسن عن جوار الأمير " دبيس الثاني بن صدقة".

استغل الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" فترة هدوء العلاقات مع الخلافة في تجهيز حلف عسكري مع إيلغازى بن أرتق عن طريق المصاهرة، فقد تزوج دبيس من كهار خاتون ابنة إيلغازى[٤]؛ حتي يلجأ إلي إيلغازي بن أرتق إذا ما ضاق به الحال في العراق، وما أن اطمأن إلى الحلف وتأكد أو ظن أنه قد تهيأ للصدام مع الخلافة العباسية والسلاجقة بغرض توسيع رقعة إمارة بني مزيد، حتي قام بأعمال سلب ونهب واسعة لضواحي بغداد؛ مستغلاً فرصة خلو بغداد من المدافعين عنها أثناء انشغال السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بالصراع مع أخيه الملك مسعود الطامع في عرش سلاجقة العراق، هنا حاول الخليفة المسترشد بالله استرضاء الأمير "دبيس الثاني بن صدقة" فأرسل إليه يعفيه من الخدمة في بلاط الخلافة بالأموال والرجال، لكن ذلك لم يحرك ساكناً لديه بل أكد له ضعف موقف الخليفة المسترشد بالله فقام بتهديد قصر الخلافة. في ذلك الوقت اقترب الجيش السلجوقى بقيادة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه من بغداد؛ فأرسل الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" إلى الخليفة

---

(١) عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢١٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٠٥؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٣٧، ٥٣٨؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٢٨٥.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٢٤٨٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٨؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢١٩؛ Cahen: the turkish Invasio the selckjd in setton , vol. I , p 171وعن إيلغازي بن ارتق انظر ص ٢٧٦ .

مهدداً بتدمير بغداد في حالة استمرار السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في التقدم نحو عاصمة الخلافة، لكن مع اقتراب السلطان سارع دبيس بالفرار لعلمه بعم قدرته على مجابهة السلطان محمود [١]. وهكذا بدأ الصراع بين الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" والخليفة المسترشد بالله، تلك المواجهة التي أدت في النهاية إلى زعزعة الإمارة، ومهدت لمحو اسم بنى مزيد من الساحة السياسية في العراق كله.

وقد حاول دبيس أن يحصل علي العفو بعد تهديده لأمن بغداد فأرسل زوجته ابنة الوزير ابن جهير وفي صحبتها عشرين ألف دينار، و ثلاثة عشر رأساً من الخيل، علها تحصل علي عفو من الخليفة عن زوجها دبيس لكن الخليفة طلب المزيد من المال و الخيل، فرأي دبيس أن الخليفة يريد استنزاف مال الإمارة، فما كان من دبيس الثاني سوي جمع أموال الحلة والفرار من العراق كله إلي صهره وحليفه إيلغازي ابن أرتق[٢].

ظل دبيس بعيد عن بلاده حتى عفي عنه السلطان محمود عام ( ٥١٦هـ/١١٢٢م)[٣]. وبالرغم من تصفية الخلافات بين دبيس والسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه إلا أن الخليفة المسترشد بالله اعترض على الصلح،وطلب من السلطان تعيين آق سنقر البرسقى[٤] شحنة لبغداد حتي يستطيع حماية بغداد إذا ما هاجمها دبيس[٥].

وقد صدق ظن الخليفة فما أن غادر السلطان بغداد عام ( ٥١٦ هـ / ١١٢٢م) حتى عاد الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" لأسلوبه القديم فقام بأعمال سلب ونهب واسعة وهو ما عجل الحرب بينه وبين آق سنقر البرسقى، غير أن آق سنقر تعرض

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢١٧، ٢١٨؛ سبط بن الجوزي: مرأة الزمان جـ٨، ق١، ص ٩٠.
ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢١٧، ٢١٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٥٦٥.( ٢ )

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٢٦؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٢٩.

(٤) آق سنقر: هو آق سنقر بن عبد الله البرسقى مملوك الأمير برسق، مملوك السلطان ملكشاه، ترقى به الحال حتي صار متولى لشحنة بغداد، اشتهر بالعدل و اللين و الأخلاق الحسنة ( ابن العديم بغية الطلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل ذكار، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٩٦٤ ).

( ٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٣٤؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٩٩؛ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٤.

لهزيمة قاسية من الأمير " دبيس الثاني بن صدقة"؛ نتيجة أخطاء تنظيمية في إدارة المعركة من قبل آق سنقر البرسقى[١]. و قد اكتفي الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" بهذا النصر الذي أظهر مدى قوته أمام قوات آق سنقر، واستخدم دبيس هذا الانتصار في السعي لدى الخليفة لتحقيق بعض المطالب وعلى رأسها عزل الوزير بن صدقة – وزير الخليفة المسترشد –[٢] الذي اتخذ موقفاً عدائياً من الأمير "دبيس الثاني بن صدقة"، وحتى يعبر دبيس عن حسن نيته أرسل إلى الخليفة طالباً السماح لعمال خراج الخلافة بجباية خراج إقطاعيات الخلافة في بلاد بنى مزيد[٣].

ولم يقبل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه الصلح المعقود بين الخليفة المسترشد بالله والأمير " دبيس الثاني بن صدقة"؛ ومرجع ذلك إلى إحساس السلطان باهتزاز هيبته في ظل هزيمة نائبه البرسقى في العراق، لذلك سارع فور وصول خبر الهزيمة بسمل منصور بن صدقة الذي كان رهينة لدى السلطان لضمان التزام دبيس بالاتفاق المبرم بينهما، وهو الأمر الذي جعل الأمير "دبيس الثاني بن صدقة" يقلب ظهر المجن للجميع، فأرسل يهدد الخليفة، الذي سارع بتوجيه الأمر إلى آق سنقر البرسقى بإعداد الجيش للدفاع عن بغداد، ولتدعيم جيش البرسقى فتح الخليفة باب التطوع لعامة بغداد للمشاركة في القتال، كما خرج بنفسه مع الجيش مدعماً لجيش البرسقى، وفي ظل التفوق الواضح لدبيس وجيشه تدخل الخليفة و قاد المعركة بنفسه، وهو الأمر الذي أدى إلى تحول ميزان المعركة لصالح جيش الخليفة، وهزم دبيس في المحرم عام ( ٥١٧هـ/ ١١٢٣م) [٤].

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٣٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٩٩؛ الداودار: التاريخ الباهر، جـ٦، ص ٤٦٠.

(٢) الوزير بن صدقة: هو جلال الدين أبو على بن صدقة، تولى وزارة الخليفة المسترشد بالله عام ( ٥١٣هـ / ١١٢٠م ) اتصف بالفضائل و تفوق في فن الانشاء ( خواندمير: دستور الوزراء، ص ٢٠١ ).

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٩٩ .

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٧؛ الباهر، ص ٢٦ ؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٤٣٨٠؛ العماد الحنبلى: شذرات الذهب في خبر من ذهب، جـ ٣ دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٦٠؛ سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ١٠٩، ١١٠؛ اليافعى: مرآة الزمان وعبرة اليقظان، جـ ٣، تحقيق د. خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٦٨؛

وكانت هذه المعركة اختباراً حقيقياً لقوة الخلافة، فهذه أول مرة منذ زمن طويل يظهر خليفة عباسي قائداً لجيش، ولا يصعب علينا تخيل حالة الجنود العرب المكونين لجيش دبيس وهم يشاهدون الخليفة – رمز العروبة يقود الجيش للتصدى لهم، و هو أمر لم يتوقعه دبيس ولا من سانده من العرب الذين سبق لهم وقاتلوا تحت لوائه ضد الأتراك أما أن يقاتلوا الخليفة فهو أمر مرفوض لديهم بالكلية؛ لذلك كان ظهور الخليفة عاملاً مؤثراً في انقلاب العرب على دبيس أو على الأقل تحييدهم [١].

والحقيقة أن انتصار الخليفة في المعركة كان من أشد الأمور ضرراً عليه ذلك أنه شعر في نفسه بقوة فقدها خلفاء بنى العباس منذ زمن طويل، فاعتقد أنه يمكنه استعادة نفوذه السياسي والعسكري، وهو الأمر الذي أدى إلى المواجهة بين الخليفة العباسي والمتغلب السلجوقى وانتهى بمصرع الخليفة المسترشد بالله. ومهما يكن من أمر فقد تأكد العداء بين الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" والخليفة المسترشد بالله، ولم يستطع دبيس سوى الفرار من العراق ليقوم بدوره الشهير في محالفة الصليبيين[٢].

أدرك دبيس أن الخليفة المسترشد أصبح عقبة كؤود في طريق عودته إلى العراق، لذلك سعى إلى التحالف مع الملك طغرل بن محمد السلجوقى[٣] الذي أراد الاستيلاء على العراق وصولاً للقب السلطنة، وبناء على اتفاق بين دبيس وطغرل فقد هاجما بغداد من جهتين مختلفتين، ورغم خروج الخليفة للتصدى لهما بنفسه إلا أن قتلاً لم يقع لأمرين أولهما: مرض مفاجئ ألم بالملك طغرل، أما الأمر الأخر فهو الأمطار الغزيرة التي سقطت في توقيت الهجوم، ولم يستطع دبيس سوى نهب بعض الإمدادات المرسلة من بغداد إلى الخليفة، ومن الطريف أن دبيس بعد نهب متاع الخليفة نام و

---

ابن أبى الدم الحموى: التاريخ المظفرى، ص ١٨٧؛ حامد زيان: الصراع السياسي بين القوى الاسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة، القاهرة، ص ١٩٨٣، ص ٧١.

(١) عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ١٩٨.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبارالبشر، جـ ١، ص ٢٣٦.

(٣) الملك طغرل: هو طغرل بن السلطان محمد بن ملكشاه، و لد عام ( ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ) تولى حكم منطق سواة و آبه و زنجان من بلاد الجبل، كما نافس أخاه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه على عرش السلطنة ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٢٦ .

أصحابه و لم يستيقظ إلا والخليفة قد وصل إلى موضعه، ففتح عينيه فوجد الخليفة فوق رأسه، فلم يملك دبيس الثاني سوى طلب العفو، وكاد الخليفة يعفو عنه لولا تدخل الوزير بن صدقة – عدو دبيس اللدود- الذي أفسد كل شئ، فاستغل دبيس ضعف الحراسة وفر إلى السلطان سنجر – سلطان سلاجقة إيران – [١].

جد الخليفة في السعي للقبض على الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" بعد تكرار اعتدائه على بغداد وتهديده المستمر للعراق معتمداً على سرعة الحشود البدوية التي تتجمع حوله بسرعة، لذلك أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان سنجر طالباً تسليم دبيس إليه، لكن السطان كان يرى أن دبيس ورقة رابحة في يده ضد الخليفة، خاصة بعد أن نقل دبيس إلى مسامع السلطان سنجر مساعي الخليفة المسترشد بالله الجدية لاستعادة سلطانه السياسي؛ لذلك اكتفي السلطان سنجر بملاطفة رسول الخليفة[٢]. وهكذا أصبح الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" ورقة رابحة ضد الخلافة يستخدمها كل طامع في تحقيق أرباح على حسابها.

ومع تأكد الخصام بين الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" والخليفة المسترشد بالله لم يعد هناك مجالاً للإصلاح بينهما، مما جعل دبيس مجالاً لاستقطاب أعداء المسترشد، فشارك دبيس عماد الدين زنكي في هجومه علي بغداد عام ( ٥٢٦هـ / ١١٣٢م )[٣] هنا أصبح الإصلاح بين دبيس والخليفة المسترشد في حكم المستحيل فتقرب دبيس من السلطان مسعود فقبله، في وقت ساءت فيه العلاقات بين الخليفة والسلطان مسعود؛ بسبب إجارة السلطان للخارجين علي الخليفة وهو ما أدي إلي صدام عسكري أسفر

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٥١؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٢٦ ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق١، ص ١١٢؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٦١٨ ؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٥٢؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ٤، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٣، ص ٤٤؛ ابن أبى الدم: التاريخ المظفرى، ص ١٨٧؛ أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة في التاريخ و الحضارة، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٧٥، ص ١٧١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ١٠، ص ٥؛ النويرى: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٧، تحقيق د. سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ٥؛ جامد زيان: الصراع بين القوى الإسلامية، ص ٧٣.

لمزيد من التفاصيل عن عماد الدين زنكي وهجومه علي بغداد بشاركة دبيس انظر ص ١٨٦. )[١] (

عن هزيمة الخليفة المسترشد وأسره، وهو أمر أزعج عميد البيت السلجوقى – السلطان سنجر – الذي أرسل إلى السلطان مسعود طالباً منه إطلاق سراح الخليفة وتسليم الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" إليه، فسارع السلطان مسعود بن محمد بتنفيذ الأمر، فعفي الخليفة عن دبيس[١] غير أن عمر الخليفة المسترشد لم يطل، فقد لقي مصرعه على يد جماعة من الباطنية، وأشارت أصابع الاتهام إلى السلطان مسعود بن محمد بأنه المحرض على قتل الخليفة، فلم يجد السلطان سوى دبيس كبش فداء له، فاتهمه بالتحريض على قتل الخليفة المسترشد لما بينهما من عداوة،وقتل الأمير " دبيس الثاني " بعد مصرع الخليفة المسترشد بالله بقليل عام( ٥٢٩هـ / ١١٣٤)[٢].

ومهما يكن من أمر فلم يكن دبيس آخر أمراء بنى مزيد إلا أن مصرعه كان نهاية للدور الذي قام به بنو مزيد على الساحة السياسية في العراق، حقيقة أن ثلاثة من أولاده قد جاءوا للحكم من بعده، إلا أنهم لم يؤثروا في الأحداث ذلك أنهم لم يكونوا في قوة والدهم الأمير " دبيس الثاني بن صدقة"، ومن ثم انغلقت إمارة بنى مزيد على نفسها، وبدأ أفول نجمها الذي استمر خمسة عشر عاما.

تدخل دبيس الثاني في صراعات البيت السلجوقى:

لقد كان اختيار الشخص الذي يجلس على عرش السلاجقة بعد السلطان ملكشاه من أهم المشاكل التي مزقت وحدة واستقرار دولة السلاجقة، في ظل عدم وجود قاعدة أو قانون على أساسه يتم اختيار الشخصية المناسبة لعرش السلاجقة، وقد تعرفنا على طرف منها في الفصل السابق حين ثار السلطان محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق، ذلك الصراع الذي انتهى عام ( ٤٩٧هـ / ١١٠٣م ) بتقسيم مملكة

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ١٠، ص ص ٤٣ – ٤٩؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٤٥؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ ٩٦، ص ٧١٤؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، جـ ١، ص ٥٨، ٥٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٦٤؛ اليافعى: مرآة الجنان، جـ ١، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ٢٦٠؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٠؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٩٢؛ الصفدى: الوافي بالوافيات، جـ ١٦؛ ص ٥٠٩؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٤١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير و الأعلام، حودث ٥٢٩هـ، تحقيق د.عمر بن عبد السلام الترمزى، بيروت، ١٩٩٥ ١٩٥؛ اليافعى مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٩٥،١٩٤؛ ابن خلدون العبر، جـ ٤، ص ٩٠؛ sayed Amir: Op.cit. , p 337.

السلاجقة فيما بينهما[١]، وبالرغم الاستقرار المؤقت لمملكة السلاجقة حين انفرد السلطان محمد بن ملكشاه بالسلطنة بعد وفاة السلطان بركياروق عام( ٤٩٨هـ / ١١٠٤م)[٢] إلا أن الصراع قد بدء من جديد بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وتولى ابنه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عام ( ٥١١هـ / ١١١٧م )[٣].

في ذلك الوقت قدم الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" الرشاوى إلى حاشية السلطان محمود الذين زينوا له السماح لدبيس بالعودة إلى الحلة و أملاك أبيه – بعد أن ظل عشر سنوات محدد الإقامة في بغداد- [٤] و قد عاد الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" إلى الحلة عازماً على اتباع نفس السياسة التي سار عليها والده صدقة من قبل والقائمة على استغلال صراعات القوى الكبرى في سبيل التوسع و زيادة النفوذ[٥].

وفي عام ( ٥١٣هـ / ١١١٩م ) نشب صراع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه السلطان سنجر؛ بسبب رغبة السلطان سنجر في الانفراد بلقب السلطنة بعد أخيه السلطان محمد بن ملكشاه في سائر أملاك السلاجقة[٦]، و في البداية مال الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" إلى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه؛ على أساس تبعيته له؛ عله يمن عليه ببعض الإقطاعات يتسع بها ملكه، لذلك أرسل فرقة كبيرة لتشارك في جيش السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، لكن لم يكتب لهذا الجيش الانتصار، فقد هزم السلطان محمود، وانتهى الأمر بالصلح على أن يحتفظ محمود بلقب السلطنة وأملاكه في العراق و غرب إيران، و يكون ولياً لعهد عمه، في حين يلقب سنجر بالسلطان الأعظم - على جميع سلاطين السلاجقة الصغار[٧].

هنا أدرك الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" أن السلطان سنجر هو الطرف الأقوى على الساحة السياسية؛ لذلك سارع فور علمه بانتصار السلطان سنجر بمراسلة الخليفة

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ١٤١؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٣٧٠.
(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ١٤١.
(٣) نفسه، ص ١٩٦؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٢٥. Ameer ali , op. Cit. , p 344.
(٤) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٥.
(٥) مسفر الغامدى: الجهاد ضد الصليبيين، ص ٧٣.
(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٤٩.
(٧) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢٧.

المسترشد بالله، ليخطب في بغداد للسلطان سنجر المنتصر، و لم يملك الخليفة المسترشد بالله سوى الإذعان، وتمت الخطبة للسلطان سنجر في بغداد في السادس و العشرين من جمادى الأولى عام ( ٥١٣هـ / ١١١٩م )[١] و استغل دبيس فرصة انشغال السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بعمه السلطان سنجر و قام بضم البصرة إلى أملاكه [٢].

وسعياً لمزيد من المكاسب عمل الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" على زيادة جراح بيت آل سلجوق بإشعال مزيد من الصراعات بين أفراده، فأخذ يكاتب " جيوش بك "[٣] أتابك[٤] الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه يحثه على دفع مسعود للمطالبة بمنحه لقب السلطنة، مؤكداً له أن الظروف مواتية لهذا الأمر بعد هزيمة أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه[٥] و يبدو أن الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" قد لقي رد فعل إيجابي من الملك مسعود الذي سارع بالخروج على أخيه، لكنه لم يفلح ووقع في الأسر و لكن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عفا عنه وأحسن إليه[٦].

حزن الأمير " دبيس الثاني بن صدقة" لهذا الصلح، لأنه ضيع عليه فرصة الاستفادة من خلافات آل سلجوق، و هو الأمر الذي جعل دبيس يفقد صوابه و يقوم بحملة نهب واسعة في ضواحي بغداد، و رغم مساعيه لإسترضاء السلطان، إلا أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٥٢ .

(٢) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢٧.

(٣) جيوش بك: كان من مماليك السلطان محمد بن ملكشاه، واتصف بالعدل وحسن السيرة، تولى أعمال الجزيرة و الموصل، وانتهت حياته على يد السلطان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عام ( ٥١٦هـ / ١٢٢٢م ) ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٤٩، ٦٠٣، ٦٠٤ ) .

(٤) الأتابك: جمعها أتابكة، وهم من مماليك السلاجقة، عهد إليهم بتربية أولادهم القصر، و منحوهم إقطاعات واسعة مقابل قيامهم على شئون أبنائهم و تأدية الخدمة العسكرية عنهم وقت الحرب، و لكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ والسلطان في تلك الولايات ( إسلام ست: الأتراك السلاجقة، موقع على الإنترنت بعنوان، www.islamset.com/arabic/ancyclo/malameh/alslgk,html

(٥) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٢؛ الباهر، ص ٢٣؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ١٧؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٢٨٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٤؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ١٩؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٢، ص ٢٣٢؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٢٨٦؛ عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢٦٠.

ذلك لم يجد، مما دفعه إلى الهروب إلى إيلغازى بن أرتق[١] وبقى بعيداً عن إمارته حتي عام ( ٥١٦هـ / ١١٢٢م ) حين حصل علي عفو من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه [٢].

ولم يستقر دبيس في إمارته إلا قليلاً فتقلبت به الأحوال حتي سار إلى السلطان سنجر مع الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه[٣]، و لعل ما شجع الأمير " دبيس الثاني " على اللجوء إلى السلطان سنجر ما سبق من دفعه للخليفة المسترشد بالله للخطبة للسلطان سنجرفي بغداد، بالإضافة إلى الود القديم بين الأمير "صدقة الأول بن منصور " وبين السلطان سنجر، الذي عبر عنه السلطان سنجر في رسالة إلى وزير الخليفة المسترشد أوضح فيها سبب قبوله لدبيس وهو ما عاهد عليه الأمير "صدقة الأول بن منصور " بالإحسان إلى ولده دبيس إذا لجأ إليه ؛ رداً على حسن ضيافة الأمير "صدقة الأول بن منصور " له، حين زار الحلة صغيراً [٤].

وفي بلاط السلطان سنجر شرع الأمير " دبيس الثاني " والملك طغرل بن محمد في تغيير قلب السلطان سنجر على ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، و كذلك على الخليفة المسترشد بالله بدعوي أنهما يسعيان للخروج على طاعته فسارع السلطان محمود إلى عمه فور علمه بهذه المساعي، و هو ما أحبط مساعي الأمير " دبيس الثاني " ؛ هنا قرر السلطان سنجر التخلص من دبيس فسلمه إلى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه و طلب منه الإحسان إليه[٥].

وحتي يفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بوعده لعمه السلطان سنجر بالإحسان إلى دبيس، فقد اتجه إلى الشروع في إعادة دبيس إلى الحلة، غير أن الخليفة

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٤، ٥٦٥؛ النويرى: نهاية الأرب،جـ ٢٧،ص ١٩؛ أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة، ص ٧٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٨٩ .

(٣) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، جـ ٢، ص ٤٨.

(٤) انظر الملحق رقم (٢).

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ١١؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٥١؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٦١٧، ٦١٨؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٥١٠؛ الصدفي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٦٤ .

اعترض على الأمر بشدة نظراً لما يمثله وجود دبيس في الحلة من تهديد لبغداد، فسعى السلطان محمود إلى توليته حكم مدينة الموصل، و لكن عماد الدين زنكى دفع مبلغاً كبيراً للسلطان حتي يبقى أتابكاً للموصل، فتراجع السلطان عن فكرته[١].

وقد أجمعت المصادر على أن السلطان سنجر كان قد أوصى ابنته و هي زوجة للسلطان محمد برعاية الأمير " دبيس الثاني " [٢] حتي يستفيد منه وقت الحاجة، و هو الأمر الذي جعل الأمير " دبيس الثاني " في أمان حتي توفيت عام ( ٥٢٣هـ / ١١٢٨م ). هنا أدرك الأمير "دبيس الثاني " أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ربما يتخلى عنه لذلك سارع مستغلاً مرضاً ألم بالسلطان محمود، وخطف أحد أبنائه الأطفال وفر به كرهينة، عله يستفيد منه في المستقبل، وسرعان ما وصل إلى الحلة فتجمع حوله العرب و دخل المدينة، و منها حاول بكل ما أوتى من قوة ومال، أن يرض الخليفة دون جدوى، في وقت تقدمت فيه قوات السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، فلم يجد الأمير " دبيس الثاني " سوى الفرار سبيلا[٣].

وأخذ الأمير " دبيس الثاني " ينتقل من مكان إلى آخر باحثاً عن موطئ قدم يستقر فيه بعد معارضة الخليفة عودته إلى الحلة ليمارس سلطاته كأمير لبنى مزيد، و في ( ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) توفي السلطان محمود، و أصبح أخوه الملك مسعود أبرز المتصارعين على منصب السلطنة لكن الأمير " دبيس الثاني " مال إلى الملك طغرل لما بينهما من ود سابق. وبنصيحة من الأمير "دبيس الثاني " استولى الملك طغرل على خلع أرسلها الخليفة المسترشد بالله إلى خوارزم شاه[٤] وادعى أن الخليفة قد قلده

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٤؛ ابن خلكان: و فيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٢٧؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٧٠٤ .

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٤ ؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٢٩.

(٣ ) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٤٩؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٤٩؛ تاريخ ابن الوردى، جـ ٢، ص ٤٩؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٦٥؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٦١٨؛ الصدفي: تاريخ دول الاسلام، جـ ٢، ص ٦٥؛ عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢٠٢ .

(٤ ) خوارزم شاه: هو محمد بن أنوشتكين، كان والده تركياً، و يعمل ساقياً في بلاط السلطان ملكشاه، و ترقى به الحال، و أدب ابنه محمد،الذي أعجب بنجابته أحد القادة الأتراك فقدمه إلى السلطان بركياروق فقلدة

منصب السلطنة، فاجتمع الناس حول طغرل باعتبار أنه السلطان الشرعي، وهو ما أضعف من موقف الملك مسعود، لكن الخليفة المسترشد بالله سارع بتقليد السلطان مسعود منصب السلطنة [١] نكاية في طغرل و الأمير " دبيس الثاني " .

توفي الملك طغرل عام ( ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ) فلم يجد الأمير " دبيس الثاني " ما يفعله سوى استرضاء السلطان مسعود، الذي قبل منه الطاعة[٢] حتي يبقى ورقة رابحة في يده يهدد بها الخلافة وقت الحاجة إليها. وفي ذلك الوقت ساءت العلاقات بين السلطان مسعود و الخليفة المسترشد بالله ؛ بسبب إيواء السلطان بعض الأمراء الأتراك الذين راسلهم طغرل قبل موته سعياً لقتل الخليفة، و لما كشف أمرهم فروا إلى السلطان مسعود الذي رفض تسليمهم إلى الخليفة مما أدى إلى سوء العلاقات[٣].

ومع انفراد السلطان مسعود بمنصب السلطنة، خشي بعض الأمراء السلاجقة من بطشه بهم لذنوب سابقة، ففروا إلى الخليفة المسترشد بالله، وشجعوه علي الوقوف في وجه السلطان، الذي دخل في صدام مباشر مع السلطان مسعود بن محمد في العاشر من رمضان عام ( ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ) وانتهى الأمر بهزيمة الخليفة ثم مصرعه على يد الباطنية كما أوضحنا من قبل.

وقد ساءت سيرة السلطان مسعود بن محمد بعد مصرع الخليفة المسترشد بالله بسبب ما حامت حوله من شبهات عن دوره في تلك الحادثة، فبحث عن كبش فداء، فلم يجد سوى الأمير " دبيس الثاني " الذي انتهت مهمته بمصرع الخليفة المسترشد بالله، و لم يبق سوى تحميله دم الخليفة، فأمر السلطان مسعود بقتله وتم ذلك على باب خيمة السلطان عام (٥٢٩هـ / ١١٣٤م )، بعد مصرع الخليفة المسترشد بالله بشهر [٤]

---

السلطان حكم إقليم خوارزم، و حمل لقب " خوارزم شاه " عام ( ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م ) و نتيجة لحسن إدارة خوارزم شاه؛ منحه السلطان سنجر المناطق المحيطة بخوارزم ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٢٦٨؛ عصام الدين عبد الرؤوف: الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، ص ٢٩٧ ) .

(١) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٢٣٥؛ عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢٠٦.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٤٢.

(٣) نفسه.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٥٤؛ الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٦٦.

تحالف دبيس مع الصليبيين:

لقد استطاع بنو مزيد أن يجدوا لهم موطئ قدم فوق أرض جنوب الفرات مستغلين حالة عدم الاستقرار السياسي التي عانى منها العراق في مطلع القرن الرابع الهجري / الحادي عشر الميلادي،وفي ظل تلك الظروف توسعوا بصورة تدريجية حتي أصبحوا قوة يعمل حسابها على ساحة الأحداث في العراق قبيل نهاية هذا القرن، في وقت تعرضت فيه المنطقة العربية لهجمة شرسة تمثلت في العدوان الصليبي.

وقد جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق الإسلامي بدعوى إنقاذ قبر المسيح – عليه السلام – من أيدي المسلمين الذين أساءوا إلى الحجاج المسيحيين. ولم يكن هذا الدافع ليخرج الآلاف من الأوربيين من ديارهم في أوربا متجهين نحو مصير مجهول في الشرق الإسلامي، لولا ما عضد هذا الدافع من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية، دفعت الأوربيون دفعاً إلى إجابة دعوة البابا أوربان الثاني للخروج إلى الشرق الإسلامي علهم يتخلصون من هذه المشاكل أو بعض منها(١).

وهكذا اندفعت الجيوش الصليبية نحو الشرق الإسلامي يحدوها الرغبة والأمل في السيطرة على أرض العسل واللبن كما أكد لهم البابا، ناهيك عما ينتظرهم من الأجر والثواب إذا أخلصوا في المشاركة في هذه الحملات، وقد استطاعت الحملة الصليبية الأولى التي بدأت في صيف (٤٨٩هـ / ١٠٩٦م ) أن تخترق أسيا الصغرى وتقف على أعتاب بلاد الشام في عام ( ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ) (٢).

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الظروف و الدوافع التي وقفت وراء الحروب الصليبية راجع: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦، ص ص ٢٥ – ٣٦ ؛ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، دار عين، ١٩٩٦، ص ص ٥٥ -١٠٢.

(٢) مجهول أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٥٨، ص ص ٩٣ – ١٤٨. وقد تكونت الحملة الصليبية الأولى من أربعة جيوش: الجيش الأول بقيادة جود فروي Godfrey دوق اللورين بشمال فرنسا وأخيه بلدوين Bouldoinوكان هذا الجيش مكون من ألمان وفرنسيين، أما الجيش الثاني فكان بقيادة روبرت النورماني Rebert دوق نورماندیا في جنوب إيطاليا، بينما قاد الجيش الثالث ريموند الثالث Raymond I I Iأما رابع الجيوش وأصغرها فكان بقيادة هيو Hugh كونت فرماندوا في فرنسا، وكان أصغر الجيوش و معظمه من الفرنسيين أيضاً (قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٢٢.

وكان بمقدور القوي الإسلامية أن تسحق القوات الصليبية الغازية لكن ذلك لم يتحقق بسبب ما ساد بين الحكام المسلمين من شك وعداوة بسبب الصراعات الطويلة بينهم خاصة المعسكرين الإسلاميين الكبيرين: المعسكر السني بقيادة الخليفة العباسي والمعسكر الشيعي بقيادة الخليفة الفاطمي، بالإضافة إلى ظهور الكيانات الصغيرة الطفيلية التي أخذت تنخر في جسد الدول الكبرى مثل بنى مزيد في الحلة، وبنى عمار في طرابلس وغيرهما؛ سعياً لإقامة إمارات خاصة بهم علي حساب القوي الكبرى غير عابئين بدين ولا بمذهب، بل ديدنهم الغزو و التوسع و المصلحة الشخصية[١].

وقد استطاعت الحملة الصليبية الأولى أن تكون ثلاث إمارات صليبية، الأولي هي إمارة الرها[٢] التي أسسها بلدوين الفرنسي Bouldoinعام ( ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م )، أما الإمارة الثانية فهي إمارة أنطاكية[٣] التي أسستها الحملة الصليبية الأولى وانفرد بحكمها بوهيموند النورماني Bohemundعام( ٤٩١هـ / ١٠٩٨م )، كما استطاعت الحملة تأسيس مملكة بيت المقدس التي تولى حكمها جود فرى البولوني God frey de Booaillion عام ( ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م ) بينما آخر الإمارات وهي إمارة طرابلس فقد تأخر تأسيسهاحتي عام ( ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ) وأصبح حاكمها هو الأمير بر ترام Bertram[٤] وأخذت هذه الكيانات الأربع تهدد باقي الأراضي الإسلامية .

ومع ظهور الإمارات الصليبية في بلاد الشام والرها، أدرك معظم الأمراء والملوك المسلمين خطورة وجود الصليبيين الساعيين إلى التوسع باستمرار، لكن ذلك لم يدفعهم إلى عمل جماعي موحد خاصة في بلاد الشام؛ بسبب الصراعات المستمرة

---

(١) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٢٢.

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل و الشام ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣٤٠ ).

(٣) أنطاكيا: مدينة تقع في الإقليم الرابع، بينها وبين حلب يوم و ليلة ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٥٤.

(٤) الأمير برترام : هو ابن القائد الصليبي ريموند الصنجيلي، استطاع بمساعدة فرسان مدينة جنوة الإيطالية وملك بيت المقدس وإمارة الرها أن يتم جهود أبيه ريموند بفتح مدينة طرابلس عام ( ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ) ( سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤ ).

بين العرب والأتراك[١] كما أن السلطان بركياروق لم يعبأ كثيراً بأمر بلاد الشام ولا بمقاومة الصليبيين وانشغل بالصراع مع أخيه السلطان محمد، ونتيجة لادراك بركيياروق لخطورة الموقف في الشام فقد تنازل عنها لأخيه السلطان محمد حين عقد الصلح معه [٢].

أما عن إمارة بني مزيد و موقفها من الغزو الصليبي، فمن الواضح أن الأمير "صدقة الأول بن منصور " الذي عاصر الحملة الصليبية الأولي، لم يكن يعنيه الأمر بالمرة، فلم تظهر منه بادرة للمشاركة في التصدي للصليبيين سوى ما حدث عام ( ٤٩١هـ / ١٠٩٨م ) حين أرسل إليه السلطان بركياروق يطلب منه المشاركة في حملة يقودها الوزير بن جهير لحرب الصليبيين، غير أن الأمير "صدقة الأول بن منصور " لم يكن راغباً في ذلك لأن الحملة لن تعود عليه بغنيمة قريبة، ورغم ذلك أطاع السلطان وخرج بقواته إلى الأنبار[٣]، لكن لم يقدر لهذه الحملة أن تكتمل فعاد صدقة إلى الحلة دون قتال بسبب تقاعس معظم قوات السلطان عن القتال[٤].

لكن مع استقرار السلطان محمد بن ملكشاه في عرش السلطنة تغير الحال، لأنه كان يختلف كثيراً عن السلطان بركياروق، فقد تحلى بالوازع الديني وحب الجهاد، لذلك قرر بدء جهاد الصليبيين منذ انفراده بالسلطنة عام ( ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ) حين كلف أحد أمرائه وهو جاولي سقاوو بجمع الجيوش لقتال الصليبيين، وكتب السلطان محمد إلى الأمير"صدقة الأول بن منصور " ليعاون جاولي بالرجال والأموال، لكن الأمر لم يتم بسبب تلكأ صدقة في تنفيذ الأمر كما شغل نفسه بالتوسع على حساب السلطان نفسه[٥].

وعلى هذا فقد تأخرت مشاركة السلطان محمد بن ملكشاه في الجهاد حتي (

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٣٧٠؛ محمد الشيخ: الجـهاد المقدس ضد الصليبيين حتي سقوط الرها، الإسكندرية، ١٩٧٤، ص ١١٧، ١١٨.

(٣) عن الأنبار راجع ص ٨٧، حاشية ٥.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ١٠٥؛ محمد الشيخ: الجـهاد المقدس، ص ١١٧.

(٥) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٢، تحقيق مسفر الغامدي، مكة المكرمة، ١٩٩٨، ص ٤٧٧؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الزمان، ص ٣٤٥؛ محمد الشيخ: الجـهاد المقدس، ص ١٩٦، ١٩٧.

٥٠٤هـ / ١١١٠م ) لعدة أسباب أولها ما واجه جاولي من مشاكل خاصة صراعه مع جكرمش –أمير الموصل- [١]، أما ثانيها فهو حروب السلطان محمد بن ملكشاه ضد الباطنية، أما ثالثها فهو وقوف الأمير "صدقة الأول بن منصور " في وجه السلطان وإيواءه الفارين منه، وهو الصراع الذي انتهى بمصرع الأمير "صدقة الأول بن منصور " عام ( ٥٠١هـ / ١١٠٨م)[٢].

وقد عهد السلطان محمد بن ملكشاه إلى الأمير مودود[٣] أمر جهاد الصليبيين فقام بعدة حملات ضدهم وجهت اثنتان منهما إلى إمارة الرها، أما الثالثة فقد وجهت لجهادهم في بلاد الشام لكنه لم يحرز نصراً واضحاً عليهم، لكن جهوده كانت فاتحة لحركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين، ولم يطل العمر بمودود فقد قتل بطعنة خنجر من أحد الباطنية حينما كان في زيارة لدمشق عام (٥٠٧هـ/١١١٣م) [٤].

وفي خضم تلك الأحداث من توسع الصليبيين، والجهود الإسلامية المضادة لوقف هذا التوسع عاد الأمير " دبيس الثاني " إلى الحلة، بعد أن بقى رهن الاحتجاز في بغداد لمدة عشر سنوات منذ مصرع أبيه الأمير "صدقة الأول بن منصور " عام ( ٥٠١هـ / ١١٠٧م )[٥]. ولم تختلف سياسة الأمير "دبيس الثاني " عن والده، فقد سار على منواله من الاستفادة من صراعات السلاطين السلاجقة سعياً للتوسع[٦] وبالتالي فقد شكل الأمير " دبيس الثاني " خطراً مزدوجا على السلاجقة والخلافة أيضاً، فقد اعتاد مهاجمة بغداد من آن لأخر حين ينشغل السلاطين عن بغداد بمشاكل بلاد

---

(١) جكرمش: هو شمس الدولة جكرمش، كان من قادة السلطان بركياروق، وحين اتفق مع أخيه السلطان محمد على الصلح، رفض جكرمش تسليم الموصل للسلطان محمد، لكنه حصل على عفوه بعد ذلك وأصبح نائباً عنه بها ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٣٨٣، ٣٨٤ ) .

(٢) محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص ص ١٩٦ – ١٩٩.

(٣) مودود: هو مودود بن التونتكين، المكنى بشرف الدين، كان قائداً تركياً من قادة السلطان محمد بن ملكشاه ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٤٢٢؛ ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٤)

(٤) لمزيد من التفاصيل عن حملات مودود الثلاث و نتائجها راجع، الشيخ: الجهاد المقدس، ص ٢١٧، ٢٤٤.

(٥) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٥.

(٦) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢١٨.

فارس[١].

وبالرغم من أن دبيس بن صدقة كان مثل أبيه ولم يعنه الجهاد ضد الصليبيين، إلا أنه شارك في معركة كبيرة ضد الصليبيين عام ( ٥١٣هـ / ١١١٩م) و هي الموقعة المعروفة بساحة الدم Ager Sangainis. وقد جاءت مشاركته في هذه المعركة بدعوة من إيلغازى بن أرتق، الذي أرسل إليه كما أرسل إلى عدد آخر من حكام المسلمين لمعاونته في جهاد الصليبيين الذين جدوا في سبيل الاستيلاء على حلب[٢].

وقبل أن ندخل في تفاصيل موقعة ساحة الدم يجب أن نبين أهمية موقع مدينة حلب الذي جعلها مطمعاً للقوى الإسلامية قبل القوى الصليبية؛ ذلك أن حلب تقع في شمال سوريا على تل عال يبلغ ارتفاعه ٤٢٧متراً في منتصف المسافة بين البحر المتوسط غرباً ونهر الفرات شرقاً[٣] وتتحصن منطقة حلب بصحراء شاسعة تمتد إلى الجنوب من المدينة، بينما يحدها من الشمال سلسلة متصلة من الجبال على شكل هلال، وإلى الغرب منها يوجد البحر المتوسط بينما يحميها من الشرق التلال و الهضاب[٤]. ويزيد من حصانةحلب قلعتها المنيعة التي تقع في وسط المدينة[٥] بالإضافة إلي كونها مركزاً زراعياً وتجارياً هاماً[٦].

أما عن الأهمية الإستراتيجية لمدينة حلب فإنها تشكل مع مدينة دمشق[٧] خطاً دفاعياً استراتيجياً إسلامياً ساعد على محاصرة الكيان الصليبي وبات سيفاً مسلطا على رقاب الصليبيين، فاستخدمته القوي الإسلامية مرات عديدة لتوجيه الضربات المؤثرة

---

(١) محمد الشيخ: الجـهاد المقدس، ص ٢٦٨.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٩٦.

(٣) موقع دمشق على الإنترنت بعنوان:www.damascus-online.com/Arabic/se-a/aleppo.htm

(٤) كمال بن مـارس: العلاقـات بين الموصـل وحلـب ودورهـا فـي الحـرب الصـليبية، رسـالة ماجـستير، كلية الآداب، جـامعة عين شمس، ١٩٩١، ص ٨؛ أسامة سيد على: الظهير الشامى و دوره في الصـراع الأسـلامى الصليبى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جـامعة عين شمس، ١٩٩٧، ص ٢٤٨.

(٥) موقع على الانترنت بعنوان:
www.mypage.ayna.com/hommuhm/Aleppo.htm

(٦) موقع على الإنترنت بعنوان www.damascus-online.com/arabic/se-a/geo/Allepo

(٧) دمشق: تقع فـي الإقليم الثالث و هـى قصبة الشام و يحـدها من الشمال جـبل قيسون( أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٥٢، ٢٥٣ ).

في الكيان الصليبي، ولو قدر أن يستولي الصليبيون علي حلب ودمشق قبل استيلائهم على بيت المقدس والساحل لتمكنوا من تأمين أنفسهم من جهة الشرق، لأن هذه السيطرة كانت سوف توفر الحماية الطبيعية للكيان الصليبي – الصحراء من الشرق والبحر من الغرب – [١] وقد روى سبط بن العجمي ما يؤكد تنبه الصليبين إلى أهمية مدينة حلب منذ وقت مبكر، فقد ذكر أن الصليبيين عقب سيطرتهم على أنطاكية عاثوا فساداً في البلاد المحيطة بها ثم ملكوا معرة النعمان[٢] وهددوا حلب ومع ضعف الملك رضوان بن تتش[٣] اضطر إلى مصالحتهم ففرضوا عليه دفع مبلغ من المال إلى جانب تعليق جرس على قلعة حلب ووضع صليب على منارة المسجد الجامع و هو ما أنكره أهل المدينة، فراجع الملك رضوان الصليبيين في أمر الصليب، فوافقوا على وضعه على أكبر كنائس المدينة[٤] و رغم ما في الرواية من طابع أسطوري إلا أنها لا تخلوا من دلالة على ضعف الملك رضوان، و إدراك الصليبيين لأهمية حلب.

نعود إلى موقعة ساحة الدم ودور دبيس فيها، فقد اشتد ضغط الصليبيين على حلب عقب وفاة الملك رضوان ( ٥١٣هـ / ١١١٩م) في ظل حالة الفوضي السياسية في المدينة خلال الثلاث سنوات التالية ومع زيادة معاناة حلب، أرسل أهلها إلي إيلغازي بن ارتق مستغيثين به من هجمات الأمير روجر حاكم أنطاكية[٥] فسارع إيلغازى بجمع جيش كبير وأرسل يطلب عون السلطان محمود بن محمد السلجوقى، لكنه لم يجبه بسبب صراعه مع عمه سنجر [٦] في حين حصل إيلغازى على عون عدد من أمراء المسلمين مثل الأمير دبيس الثاني " و طغتكين [٧] حاكم دمشق[١].

---

(١) أسامه سيد علي: الظهير الشامي، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢)معرة النعمان: مدينة من مدن الشام قريبة من حمص،كثيرة الثمار والسكان ( أبو الفدا: تقويم البلدان: ص ٢٦٥)

(٣) الملك رضوان: هو تاج الدولة رضوان بن تتش. ورث حلب عن والده تتش في الفترة بين عامي ( ٤٨٩هـ/١٠٩٥م) و عام (٥٠٠هـ/١١١٣م)( ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٤٩٩).

(٤) سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٤٠جـ، ص ١٠٧.

(٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٩٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٤٤ .

(٧) طغتكين: كان من القادة السلاجقة المقربين لتاج الدولة تتش، استطاع استغلال اضطرابات بلاد الشام و

واتخذ إيلغازى ويعاونه الأمير " دبيس الثاني " من قنسرين[٢] قاعدة للهجوم على أنطاكية فشعر روجر بحرج الموقف فراسل جميع أمراء الصليبيين ليعاونوه[٣] و عسكر بجيشه وكان مجموع قواته ثلاثة آلاف من المشاة وسبعمائة فارس وعسكر في موضع بين حلب وأنطاكية قرب أرتاح[٤] وبالرغم من تعداد جيش إيلغازى ودبيس الثاني الضخم الذي وصل إلى نحو الأربعين ألفاً إلا أنه لم يهاجم الصليبيين مباشرة، بل أظهر عزمه على غزو حصن الأثارب[٥] وتظاهر إيلغازى والأمير " دبيس الثاني " ومن حالفهما بالانسحاب لكنهم عادوا في اليوم التالي وحاصروا الصليبيين وحصدوهم بالسيف عن بكرة أبيهم في يوم ٢٨ يونيه (٥١٣هـ / ١١١٩م) حتي أن الصليبيين قد أطلقوا على هذه المعركة اسم ساحة الدم Ager Sanguinis [٦].

ورغم فداحة خسائر الصليبيين وفقدانهم أمير أنطاكية إلا أن هذا النصر كان محدود الأثر، لأن إيلغازى و دبيس لم يسارعا بالسيطرة على أنطاكية رغم أنها أصبحت بلا مدافع عنها، ويبدو أنهما أكتفيا بكسر عادية الصليبيين وتخفيف ضغطهم

---

ضعف السلاجقة و أسس لنفسه أتابكية في دمشق عام ( ٤٩٧هـ / ١١٠٤م ) ( محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص ٣٢، ٧٦ ).

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٤٤؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٤٨.

(٦) قنسرين:مدينة كانت من أهم مدن بلاد الشام، تقع جنوب حلب،وهي اليوم قرية صغيرة. (أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٧؛وانظر موقع التاريخ الإسلامي علي الانترنت بعنوان

http://history.al-aslam.com/Placesdef.asp?Place=7

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٤٨.

(٤) أرتاح: هى حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٧٦.

(٥) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب و أنطاكية، بينهما و بين حلب نحو ثلاثة فراسخ ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٠٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٤٥؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٥٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٠٨ ؛ محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص ٢٧٥، ٢٨٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٩٧؛ محمد كرد على: خطط الشام، جـ ١، دمشق، بدون تاريخ، ص ٣٠١؛ مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة بحرب الصليب، ترجمة كيريو كيريو مكسيموس مظلوم، دير الرهبان الفرنسيسكان، القدس، ١٨٦٥، ص ٢٣١. , Michud: Historie des Croisades p71,72, clued Cahen: La Syrie du nord , paris , 1940, p.286,287

عن حلب[١] بالإضافة إلى تعرض الجيش الإسلامي لهزيمة محدودة الأثر نتيجة الهجوم المفاجئ للملك بلدوين – ملك بيت المقدس – بعد ساحة الدم بقليل [٢].

وهناك علامتا استفهام تطرحان نفسيهما حول معركة ساحة الدم: العلامة الأولى تدور حول سبب مشاركة الأمير " دبيس الثاني " في المعركة، أما العلامة الثانية تدور حول سبب إغفال المصادر العربية لدور دبيس في موقعة ساحة الدم، رغم أن وليم الصوري وهو من الكتاب الصليبيين أكد هذه المشاركة. ولعل سبب مشاركة دبيس في معركة ساحة الدم يرجع إلى رغبة دبيس في توثيق علاقته وتحالفه مع إيلغازى بن أرتق الذي دعم بزواج الأمير "دبيس الثاني " من ابنة إيلغازى [٣] أما عن الأمر الثاني وهو سبب إغفال المصادر العربية لدور دبيس، فهذا الأمر بالغ الوضوح وهو جريمة دبيس التي أكد بها خيانته للقضية الإسلامية بمحالفته للصليبيين، و هو ما جعل المصادر الإسلامية تغفل أو تتعمد أو تستبعد مشاركة دبيس في المعركة، و لكن هذه المشاركة أمست من المسلمات بذكر وليم الصوري لها.

ومهما يكن من أمر فإن مشاركة الأمير " دبيس الثاني " في موقعة ساحة الدم كانت يمكن أن تسجل بحروف من نور لو استمر الأمير " دبيس الثاني " في معاونة القوى الإسلامية في بلاد الشام ضد الخطر الصليبي، ولعد من المجاهدين العظام، لكن الأمير " دبيس الثاني " لم يكن أمر الجهاد يعنيه بالمرة بل التوسع هو هدفه ودافعه.

نعود إلي إيلغازى بن أرتق الذي استمر في جهاد مستمر للصليبيين حتي توفي عام (٥١٦هـ / ١١٢٢م ) فتفككت إمارته وتوزعت بين أربعة من الورثة أثنين من أولاده وهما سليمان[٤] – الذي حصل على ميافارقين [١] في حين كانت ماردين[٢] من

---

(١)محمد الشيخ: الجـهاد المقدس، ص ٢٧٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٥٦؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٥٥. Michud: Historie des Croisades , p71,72, clued Cahen: La Syrie du nord , paris , 1940, p.286,287.

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ١٠، ص ٥٦١ .

(٤)سليمان بن إيلغازي: هو سليمان بن إيلغازي بن أرتق حكم حلب في حياة ابيه، لكن جلسائه زينوا له الاستقلال بحلب عن والده، لكن كشف الأمر و تمكن إيلغازي من القضاء علي تمر ولده. وعقب وفاة إيلغازي ورث سليمان مدينة ميافارقين ( ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٢٠٩)

نصيب الابن الثاني وهو تمرتاش[٣]، واثنين من أبناء إخوته وهما بلك بن بهرام[٤] الذي ورث خرتبرت[٥] وصارت حلب من نصيب سليمان بن عبد الجبار بن أرتق[٦].

وكان أنشطهم جميعاً في جهاد الصليبيين الأمير بلك بن بهرام الذي توج جهوده في قتال الصليبيين بأسر جو سلين Josceline[٧] –حاكم الرها – عام ( ٥١٦هـ / ١١٢٢م)[٨] وسجنه في حصن خرتبرت وعندما حاول الملك بلدوين الثاني - ملك بيت المقدس – فك أسر جوسلين، وقع هو الآخر في قبضة بلك الأرتقي عام ( ٥١٧هـ / ١١٢٣م ) لكن جوسلين ما لبث أن هرب من الأسر؛ بفعل خيانة بعض من أهل خرتبرت، وأوشك بلدوين على الهرب لولا سرعة بلك الذى استطاع إعادة بلدوين للأسر، ولما وجد خرتبرت غير آمنة نقله إلى حلب، وبقى بلدوين سجيناً في حلب حتي توفي بلك عام (٥١٨هـ / ١١٢٤م ) وصارت حلب من أملاك تمرتاش بن إيلغازي وكذلك الأسير الملكي بلدوين الثاني [٩].

---

(١) ميافارقين: هى قاعدة ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية بينها و بين كيفا مسيرة ستة أيام ( أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٧٨ ).

(٢) ماردين: هي إحدي حصون بلاد الجزيرة، تقع علي تل عال يبلغ ارتفاعه نحو فرسخين (أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٧٩ ).

(٤) تمر تاش: هو حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق ورث مدينة ماردين عقب وفاة والده ثم استولي علي حلب عقب وفاة بلك بن بهرام الأرتقي(ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٢٢١)

(٥) بلك بن بهرام: هو بلك بن بهرام بن أرتق شارك عمه إيلغازي في جهاد الصليبيين وتوج جهوده في جهاد الصليبيين حين أسر الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، واستشهد عام(٥١٨هـ/١١٢٤م) أثناء حصاره امدينة منبج ( ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ص ٢٠٣-٢١٩)

(٥) خرتبرت: هو أحد الحصون يقع علي نهر شمشاط، وهو من الأنهار المتفرعة من نهر الفرات (أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٧٨ ).

(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٩ :clued Cahe op.cit. , p.295.

(٧) جوسلين دى كورتيناي: Josceline de courtenayهو نبيل فرنسي، جاء إلى الرها فقيراً معدماً، فآواه بلدوين الأول - ملك بيت المقدس – ومنحه إقطاعاً بجوار نهر الفرات، وترقي به الحال حتي صار حاكماً على الرها ( وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٤٠، ٤٩ ).

(٨) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٦؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٦٣، ٣٦٤ , Runciman: op. Cit. , II , P 163. ؛Matthie de Edesse: Chaonique , Paris , 1858 , P 311

(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢،ص ص ٢٠٩، ص ٢٢١؛ مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة،

في ظل تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها دولة الأراتقة كان الأمير " دبيس الثاني " قد هزم أمام الخليفة المسترشد بالله عام ( ٥١٧هـ / ١١٢٣م ) وأخذ يرنو ببصره نحو حلب بعد أن فقد الحلة، فحاول استخدام مذهبه الشيعي ليجذب إليه أعيان حلب من الشيعة ليسلموا له المدينة ـ وراسلهم فوافقوه لولا اكتشاف تمرتاش للمؤامرة قبل تنفيذها، ففشلت جهود الأمير " دبيس الثاني " [١]. وطمع الأمير " دبيس الثاني " في حلب ليس بالأمر الجديد فقد سعي عام (٥١٤هـ / ١١٢٠م ) حين كان لاجئاً إلي إيلغازي، ليمنحه حلب في مقبل مائة ألف دينار ومعاونته بالرجال حتي يفتح أنطاكية، لكن إيلغازي راوغه، و لم يتم لدبيس ما سعي إليه [٢].

ولم يكن تمرتاش بن إيلغازي بالرجل المناسب لحكم حلب في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها المدينة، في ظل تربص الصليبيون بها من جهة والأمير " دبيس الثاني " من جهة أخري؛ ذلك أن تمرتاش كان شاباً صغيراً غير مدرك لخطورة الموقف كما شغف بعزل وتولية الوزراء[٣] وأدرك أنه لن يستطيع أن يطاول الصليبيين؛ لذلك فتح معهم باب المفاوضات حول الملك بلدوين الأسير لديه، واتفق معهم علي إطلاق سراح الملك مقابل ثمانين ألف دينار، يدفع منها مقدماً عشرين ألفا و يسلم تمرتاش بن إيلغازي حصون الأثارب وذردنا[٤]، و الجزر[٥]،و كفر طاب[٦]، و

---

جـ١، ص ٢٣٤.

(١)ابـن العـديم: زبـدة الحلـب، جـ ٢، ص ٢٢١؛ و كـذلك فـي بغيـة الطلـب، جـ ٧، ص ٣٤٨٠؛ : Nicholson:The growth of the Latin states , in setton , Vol I , P 423 , Gibb: op. , cit. P. 452.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٠.

(٣)ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٠.

(٤) زردنا: قرية قريبة من معرة مصرين من ضواحي حلب، كان بها قلعة حصينة لكنها خربت ( ابن العديم: بغية الطلب، جـ ١، ص ١٣٣ )

(٥) الجزر: بلدة من نواحي حلب ( ابن العديم: بغية الطلب، جـ ١، ص ٣٢٩ ).

(٦) كفر طاب: هي قرية صغيرة بين المعرة و شيزر في وسط الطريق بينهما ( أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٣ )

عزاز[١]، ولا يتحالف مع الأمير " دبيس الثاني " [٢].

في ذلك الوقت كان الأمير " دبيس الثاني " مقيماً في قلعة جعبر[٣]، ضيفاً علي أميرها سالم بن مالك[٤] الذي كان علي علاقة طيبة مع الصليبيين فاتفق معهم علي أن يشاركوا الأمير "دبيس الثاني " في حصار حلب وفتحها علي أن تكون حلب لدبيس والأموال والغنائم للصليبيين، وأكد لهم أن الأمر يسير في ظل تشيع أهل حلب، وأنهم سوف يطيعوه وعلي هذا انعقد الحلف بين الأمير " دبيس الثاني " والصليبيين [٥].

أما عن التزامات بلدوين الثاني تجاه تمرتاش بن إيلغازي، فلم يوف بها، وأكد له أن هذا الأمر بيد كبير البطارقة وليس بيديه، هنا أدرك تمرتاش أن حلب لن تعود عليه بفائدة وأنه إن بقي بها سوف يخسر كثيراً في ظل الأطماع المتزايدة حولها لذلك آثر ترك حلب في حراسة أهلها وعدد من الفرسان وسار إلى ماردين طمعاً في وراثة أخيه المريض سليمان بن إيلغازي[٦].

---

(١) عزاز: هى بلدة من ضواحي حلب ( ابن العديم: بغية الطلب، جـ ١، ص ٣٣٠ ).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢١؛ و كذلك في بغية الطلب، جـ ٧، ص ٤٢٨٠؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٠٩؛ عليه الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٩١؛ الشيخ الجهاد المقدس، ص ٢٨٦؛

Chaonique de matthieu. P 312 , Nicholson: op. , cit , p 423 , Gibb: Op.cit. , 452 , Cluaude cahen: opcit , p 299.

(٣) قلعة جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقة غرب صفين ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٨٤ )

(٤) سالم بن مالك: هو الأمير أبو العز مالك بن سالم بن مالك حكم قلعة جعبر، وكان علي علاقة حسنة مع الصليبيين ( ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨١، ٣٤٨٨ )

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ وكذلك في بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨٠؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ ١٥، مجلد ٤، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ح، ص ٨٤٠؛ كمال الحلبي: نهر الذهب من تاريخ حلب، تحقيق شوقي شعيب، جـ ٣، ص ٧٦؛ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ١، ص ٣٠٣، ٣٠٤؛ سعيد عاشور الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤١٠؛ عليه الجنزوري: إمارة الرها، ص ١٩٢؛ عماد الدين خليل: إمارة بنى أرتق، ص ٢٠٨؛ Grousset: Op.Cit. , p 172 , Gibb: op. Cit. , p 452 , Runciman, op. Cit. , p 172.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٣؛ الشيخ: الجهاد المقدس، ص ٢٨٦؛ Cluaude cahen: opcit , p .300.

أما الأمير " دبيس الثاني " فقد مضي قدماً في تعبئة القوات التي يستطيع جمعها، ونجح في تكوين حلف إسلامي صليبي بغرض الاستيلاء علي حلب، وتكون الجانب الإسلامي من الأمير " دبيس الثاني " وسالم بن مالك – صاحب قلعة جعبر -، وسلطان شاه بن رضوان[١] وطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الأول[٢] الذي فقد إمارته في ملطيه[٣] فسار إلي الصليبيين ليساعدوه في استردادها كما شارك ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي صاحب بالس[٤] طمعاً في الغنيمة وحقداً على تمرتاش بن إيلغازي، هذا من الجانب الإسلامي، أما الجانب الصليبي فقد ضم جوسلين دى كورتيناي حاكم الرها وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس [٥].

ومع تمام الاستعدادات للحصار أخذت القوات المتحالفة تتقدم نحو حلب لفرض الحصار عليها طمعاً في سقوطها، وقد حرصت هذه القوات في طريقها إلى حلب على تدمير المناطق الزراعية المحيطة بها[٦]، حتي لا يستفيد منها أهل حلب سواء نجح الحصار أم فشل، وأخذت القوات في الانتشار حول أسوار المدينة ووزعوا أنفسهم كالتالي: بلدوين الثاني _ ملك بيت المقدس _ ومعه جيش إمارة أنطاكية في الجانب الغربي من حلب، وجوسلين ومعه جيش الرها في الشمال، والأمير " دبيس الثاني "

---

(١) سلطان شاه: هو سلطان شاه بن رضوان بن تتش، تولى حكم حلب بعد مصرع أخيه ألب أرسلان بن رضوان عام ( ٥٠٧هـ / ١١١٣م ) حتي خلعه إيلغازي عام ( ٥١١هـ / ١١٧م ) ( ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ١٦٥، ١٨٥ )

(٣) طغرل أرسلان بن قلج أرسلان الأول: حكم ملطية مستقلاً عن أخيه السلطان مسعود (٥٠٠- ٥٥٠هـ/ ١١٠٧-١١٥٥م) عقب وفاة والده قلج أرسلان الأول عام (٥٠٠هـ-١١٠٧م) مما جعل مسعود يعاون صهره غازي بن الدانشمند في إسقاط حكومة طغرل في ملطية عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م) ( علي بن صالح المحيمد: الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، ١٩٩٤، ص ١٠٨، ١٠٩) .

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم المشهورة، تتاحم الشام، وهي في يد المسلمين ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٨، ص ٤٦ ).

(٤) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، و هي في الإقليم الرابع ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٤٦ ).

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ Chaonique de matthieu. P314؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ص ٤٣٠؛ عليه الجنزوري: إمارة الرها، ص ١٩٣؛ الشيخ الجهاد المقدس، ص ٢٧٨؛ حامد زيان:: الصراع السياسي، ص ٧٤؛

Runciman: Op.cit., p 172 , Grousset: op. Cit. , p 623 , Cluaude cahen: opcit , p 301.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٣.

ومعه من اجتمع من العرب وسلطان شاه من جهة الشمال الشرقي، وياغي سيان في شرق المدينة[١].

ولم تكن حلب في حالة تسمح لها – من الناحية العملية – بالصمود طويلاً في وجه هذه الحشود التي حاصرتها، والتي نصبت لنفسها نحو ثلاثمائة خيمة منها مائة للمسلمين ومائتين للصليبيين[٢] يكونون ثلاثة ألوية: لواء الأمير " دبيس الثاني [٣]" ولواء الملك بلدوين، ولواء الملك سلطان شاه بن رضوان[٤] والحقيقة أن التكهن بأعداد المقاتلين المحاصرين للمدينة من الصعب التنبوء به في ظل صمت المصادر عن هذا الأمر،وكذلك تحديد أي الفريقين كان أكثر- في الحلف المحاصر لحلب- المسلمون أم الصليبيون. وبصورة عامة كانت قواتهم العسكرية تفوق بكثير القوة المدافعة عن حلب والتي لم تتجاوز خمسمائة جندي يقودهم الحاجب عمر الخاص[٥] يعاونه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وعامة أهل حلب[٦].

ومنذ بدء الحصار توقع المحاصرون أن يطول أمده؛ لذلك اتجهوا إلى نصب الخيام وبنوا البيوت تحسباً لسوء حالة الجو، خاصة أن الحصار قد بدء في أكتوبر ( ٥١٨هـ / ١١٢٤م )[٧] كمااستخداموا وسائل مختلفة لإضعاف معنويات المدافعين عن حلب، منها قطع الأشجار ونبش قبور المسلمين، التمثيل بالجثث و تمادي الصليبيون و

---

(١) Grousset: op. Cit. , p 623 , Nicholson: op. Cit. P 424 , Gibb: op. Cit. , p 452 .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٤.

(٣) بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار:هو بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، ورث حلب عقب وفاة عمه إيلغازي بن أرتق عام (٥١٦هـ/١١٢٣م) حتي انتزعها منه بلك بن بهرام في العام التالي ( ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٢٠٩ ).

(٤) ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٢٤٨٣.

(٥) عمر الخاص: هو نائب تمرتاش بن إيلغازي بحلب وربيب إيلغازي، ولاه تمرتاش بن إيلغازي شحنكية حلب عام ( ٥١٨ / ١١٢٤م ) و توفي بها ودفن في ضريح عليه قبة، قريب من مشهد إبراهيم – عليه السلام – ( ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢١).

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٥؛ مسفر العريج: الجهاد ضد الصليبيين، ص ٧٩

(٧) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٢٣؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨٦؛ Runciman: Op.cit. , p 172.

أهانوا القرآن[١] غير عابئين بمشاعر حلفائهم المسلمين، و لم تبين لنا المصادر موقف الأمير " دبيس الثاني " و من وافقه من قادة المسلمين من هذه الأعمال الاستفزازية لمشاعر كل مسلم، ويرجح أنهم قد غضوا الطرف عنها حتي يبلغوا أملهم الذي اجتمعوا من أجله.

أما أهل حلب فقد ردوا على تلك الأعمال الاستفزازية بأعمال مماثلة، وقاموا بحملات سريعة وخاطفة على معسكرات الحلف الإسلامي الصليبي، يخطفون ما تصل إليه أيديهم من الأنفس و الأمتعة، ثم يعودون بسرعة إلى المدينة، واعتاد عامة حلب طوال فترة الحصار الوقوف علي أسوار حلب والضرب علي طبل صغير منادين "يا دبيس يا نحيس "[٢] ولم لا وهو من جلب عليهم هذا العناء، معبرين عن غضبهم لفعله الذي لا يقبله مسلم كان سني أو شيعي، مؤكدين خيبة أمله في وقوف شيعة حلب إلى جانبه، وبالرغم من ذلك فقد عانى أهل حلب من هذا الحصار، فضاق الحال بهم وعزت الأقوات، وبلغت قلوبهم الحناجر، وظنوا أن سقوط المدينة أمر متوقع في أي لحظة خاصة مع تدهور أحوالهم، وتفشي الأمراض بينهم، وانتشرت المجاعة في المدينة بشكل ينذر بالخطر، و رغم كل ذلك دافعوا عن المدينة دفاعاً مستميتاً، عبر عنه ابن العديم بقوله " كان المرضي يئنون من شدة المرض، فإذا ضرب البوق بزحف الفرنج قام المرضي كأنما نشطوا من عقال وزحفوا إلى الفرنج وردوهم إلى خيامهم، ثم يعودون إلى مضاجعهم" [٣].

حدث كل ذلك ولم يحرك تمرتاش بن إيلغازي ساكناً بالرغم من كونه الحاكم الفعلي، فقد شُغل بميراث أخيه سليمان وترك لأهل حلب أمر الدفاع عنها، فإذا فشل الحصار فهي مدينته وإذا سقطت لم يكلف عناء الدفاع عنها، بصرف النظر عن أي

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٥؛ سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، ص ٧١.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٢٣؛ عماد الدين خليل: إمارة بني أرتق، ص ٢١٠ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢٦، ٢٢٧؛ وكذلك في بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨١؛ كمال الحلبي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٦؛ عماد الدين خليل: إمارة بني أرتق، ص ٢١١؛ Nicholson: op. Cit. P 24

اعتبارات أخري متناسياً تاريخ أسرته المشرف في مقاومة الصليبيين والدفاع عن حرمات المسلمين، ومع ذلك سارع أهل حلب طالبين عون تمرتاش، لعل أخبار الحصار لم تصله – وهذا محال – لكنه صم أذنيه، فما كان من تمرتاش سوي اعتقال رسل أهل حلب، خاصة بعد تأكده من سوء أحوال المدينة، وإن سقوطها أصبح وشيكاً[١].

أمام تقاعس تمرتاش بن إيلغازي عن نجدة حلب، دبر رسل حلب أمرهم وفروا إلى آق سنقر البر سقي – حاكم الموصل – طالبين نجدته، فتأخر قليلاً في إجابة طلبهم لمرض ألم به، واستغل الأمير " دبيس الثاني " هذه الفترة في محاولة أخيرة لتدمير الروح المعنوية لدي أهل حلب بإشاعته كذباً بأن آق سنقر قد مات، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح[٢] فقد شفي آق سنقر و سارع لنجدة حلب هنا طلب الأمير " دبيس الثاني " من بلدوين معاونته بفرقة يحاول بها منع عبور آق سنقر لنهر الفرات لكن بلدوين أصم أذنيه، وما أن علم باقتراب آق سنقر من حلب حتي سارع و معه جميع المحاصرين بفك الحصار خوفاً من الدخول معه في المعركة غير المأمونة العواقب[٣] لجهلهم بحجم القوات المصاحبة لآق سنقر، وكان ذلك في نهاية يناير ( ٥١٨هـ / ١١٢٥م)[٤] ودخل آق سنقر المدينة منهياً هذا الحصار الذي دام نحو أربعة أشهر.

هكذا فشل حصار حلب وخاب أمل من شاركوا فيه بصفة عامة ودبيس بصفة خاصة. وكان لاستبسال أهل حلب ونجدة القائد آق سنقر لهم أكبر الأثر في فشل هذا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٣٥؛ و كذلك في بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨١؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤١٠؛ كمال الحلبي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٦ ؛ Runciman: Op.Cit. , p 170.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ١٠، ص ٦٢٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢،ص ٢٨٨ ؛ وكذلك في بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨١ ؛ كرد علي خطط الشام، جـ ١، ص ٣٠٤؛ .Chaonique de matthieu, p314.

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٢٤؛ مسفر العريج: الجـهاد ضد الصليبيين، ص ٧٩؛ Runciman: Op.cit II , p 177 , Nicholson: Op.cit., p 424. ,

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٨٨؛ Runciman: Op.cit II , p 177 , Nicholson: Op.cit., p 424 , Cluaude cahen: opcit , p 301.

الحصار[١] بالإضافة إلي عدم استجابة شيعة حلب لدبيس كما توقع، هذا بالإضافة إلي نقص آلات الحصار المستخدمة؛ وقد يرجع ذلك إلى السرعة التي تم بها الحلف دون الاستعداد الكامل، ومهما يكن من أمر فقد تفتت الحلف الإسلامي الصليبي، وسار بلدوين إلى حصن ذردنا[٢] في حين سار الأمير " دبيس الثاني " نحو فارس لاجئاً إلى السلطان سنجر[٣].

ومن المؤكد أن الأمير " دبيس الثاني " كان هو الخاسر الأكبر في هذا الحصار لأمرين أحلاهما مر: الأول فقدان حلب والثاني تشويه صورته أمام جميع المسلمين؛ ذلك أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت كان يقبل كل شيء إلا التحالف مع الصليبيين وهو ما عبر عنه ابن العديم [٤] حين استهجن فعل الأمير " دبيس الثاني " و فند رأي السمعاني- الواصف لدبيس بأنه خاتمة شرف بني مزيد، - مؤكداً ضعف إيمان دبيس وذهابه بمفاخر أهل بيته جميعاً خاصة والده الأمير "صدقة الأول بن منصور ".

هكذا خان الأمير " دبيس الثاني " القضية الإسلامية في وقت كانت فيه الجبهة الإسلامية في حاجة إلى كل رجل، لكن الأمير " دبيس الثاني " لم يكن يعنيه سوى المنفعة الشخصية فقط[٥] مثله مثل العديد من القوي الإسلامية الشامية التي وجدت حياتها في التعاون مع الصليبيين مثل صاحب قلعة جعبر وحكام شيزر من بني منقذ وبنى عمار أصحاب طرابلس الذين تعاونوا مع الصليبيين ضد الجبهة الإسلامية لاعتقادهم أن الوحدة الإسلامية سوف تذهب بهم لأنهم نتيجة طبيعية لتفتت القوي الإسلامية الكبري[٦].

ظهور الأراتقة والأتابك عماد الدين زنكى:

من الأمور المتكررة في التاريخ السعي الدائم من قبل القوي الجديدة لقضاء علي

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٢٤٤.

(٢) زردنا: بلدة من نواحي حلب الغربية ( عبد الحق البغدادى: مراصد الاطلاع، جـ ٢، ص ٦٦٢ ).

(٣) Runciman: Op.cit II , p 178

(٤) ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٨٦.

(٥) عليه الجنزوري: إمارة الرها، ص ١٩٥.

(٦) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي، ص ٤٢، ٤٣.

القوي السابقة عليها، أو السعي الدائم لإضعافها علي الأقل حتي لا تكون عقبة في طريقها خاصة إذا كان بينهما خلاف علي الأرض، ولا يشترط في هذا السعي أن يكون عن طريق الصدام المسلح بل يمكن أن يأتي بطريق استنزاف طاقة القوي القديمة من خلال تحالفات أو معاهدات تستنزف بها القوي الجديدة أموال وعدة القوي القديمة وتأتي صلات بني أرتق وعماد الدين زنكي بدبيس الثاني في هذا المضمار.

أما عن بني أرتق فينتسبون إلي أرتق بن أكسب التركماني، الذي كان من جند السلطان ملكشاه، ثم انتقل إلي خدمة تاج الدولة تتش [١]، الذي كافئه بمنحه حكم بيت المقدس، وتوفي أرتق عام ( ٤٨٩هـ / ١٠٩٨م ) وترك ولدين هما سقمان وإيلغازي اللذين ظلا في خدمة تتش ومن بعده ولده الملك رضوان بن تتش، لكنهما لم يبقيا في حكم القدس طويلاً، فقد خسراها لصالح الفاطميين، مما جعل إيلغازي بن أرتق يرحل إلي العراق ويدخل في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه، أما سقمان فقد اتجه إلي بناء إمارة خاصة به في ديار بكر[٢] واستولي علي ماردين وجعلها مقراً لحكمه وتوفي عام ( ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ) فورثه أخوه إيلغازي[٣].

وقد اتصل إيلغازي ببني مزيد منذ عهد الأمير "صدقة الأول بن منصور " حينما كان إيلغازي بن أرتق شحنة للسلطان محمد بن ملكشاه في بغداد [٤] ودعمت الصلات في عهد الأمير " دبيس الثاني " حين استعان به إيلغازي بن أرتق في حرب الصليبيين فشارك الأمير " دبيس الثاني " في موقعة ساحة الدم كما أسلفنا، وهنا أدرك الأمير " دبيس الثاني " في ظل حالة عدم الاستقرار في إمارة بني مزيد، حاجته إلي حليف قوي يطلب عونه وقت الحاجة و يلجأ إليه إذا ما ضاقت به السبل، ولم يجد خير من إيلغازي

---

(١) تتش: هو تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، يعتبر هو المؤسس لسلطنة سلاجقة الشام، كما طمع في وراثة ملكشاه لكنه قتل علي يد السلطان بركياروق عام ( ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ) ( ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ص ٢١٩ – ٢٤٤ ) .

(٢) ديار بكر: هي جزء من إقليم الجزيرة بجوار ديار ربيعة ( أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٧٣ ).

(٣) لمزيد من التفاصيل عن قيام إمارة بني أرتق راجع عماد الدين خليل: إمارة بني أرتق، ص ص ١٢ – ٣٥؛ عفاف صبره: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٥ ص ٢٨٢،٢٨٣؛ دائرة المعارف لاسلامية،جـ٢، ص ٥٢٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٣٥٦ . و عن موقعة ساحة الدم راجع ص ١٦٢ .

بن أرتق فأرسل يطلب مصاهرته بعد نهاية موقعة ساحة الدم ( ٥١٣هـ / ١١١٩م ) [١] فأجابه يلغازي إلي طلبه لعلمه بقوة الأمير " دبيس الثاني " وقوة تأييد عرب العراق له، وهو ما يمكن أن يستفيد منه كما استفاد منه في موقعة ساحة الدم.

وقد كان إيلغازي عند حسن ظن الأمير " دبيس الثاني "[٢] حين فر من وجه الخليفة المسترشد بالله عام ( ٥١٤هـ / ١١٢٠م )، فأحسن إيلغازي بن أرتق وفادته ومنحه من المال والعتاد ما يفوق الحصر[٣] ومن الواضح أن الأمير " دبيس الثاني " كان في حاشية عظيمة من أتباعه، وقد صادف ذلك زيادة ضغط الصليبيين علي حلب، وهو ما اعتبره ابن العديم نتيجة طبيعية لاهتمام إيلغازي بدبيس[٤]. غير أن الأمر لم يكن كما رأي ابن العديم، ذلك أن زيادة هجمات الصليبيين علي حلب جاءت نتيجة لانشغال إيلغازي بن أرتق والأمير " دبيس الثاني " في محاربة الكرج[٥] الذين اجتاحوا بلاد الملك طغرل بن محمد السلجوقى، وأمام عجز الملك طغرل عن استرداد بلاده بقوته الذاتية، أرسل يستنجد بالقوى الإسلامية المختلفة ومن بينها إيلغازي بن أرتق، فلم يملك إيلغازي بن أرتق سوي إجابة النداء وسارع علي رأس جيش كبير يعاونه الأمير "دبيس الثاني " . وقد كان الجيش الإسلامي بقيادة الملك طغرل وإيلغازي وعهد إلي الأمير "دبيس الثاني بقيادة ميسرة الجيش الذي بلغ تعداده نحو ثلاثين الف مقاتل(٥).

---

(١) ذكر ابن الأثير خبر زواج دبيس بابنة إلغازي عام ( ٥١٣هـ / ١١١٩م ) في حين ذكرها ابن الجوزي في أحداث ( ٥١٤هـ / ١١٢٠م ) و يمكن التوفيق بين الروايتين علي أساس أن طلب الزواج كان في نهاية عام ٥١٣هـ في حين أن الزواج قد تم بالفعل عام(٥١٤هـ/١١٢٠م)مزيد من التفاصيل عن هذا الزواج راجع ( ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ١٩٧ ؛ Cahan: Turkish Invasion , the selked in setton , Vol I , p 170

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٥؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٦٨٦؛ عماد الدين خليل: إمارة بني أرتق، ص ٧١ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ١٨٩.

(٤) نفسه.

(٥) الكرج: هم جيل من النصاري، كانوا يسكنون جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتي ملكوا تفليس من يد المسلمين ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢٥١ ).

ولدينا رويتان عن سير المعركة، الأولي ذكرها ابن الأثير[١] فحواها أن الجيشين اصطفا للقتال، ثم خرجت مجموعة قليلة نحو المائتين من جيش الكرج نحو المعسكر الإسلامي وكأنهم رسل للتفاوض، حتي إذا اقتربوا من الجيش الإسلامي هاجموه فحدث اضطراب عم الجيش الإسلامي فاستغلها الكرج و شتتوا شمله. أما الرواية الثانية فاجأت لدي ابن العديم[٢] الذي ذكر أن المعركة قد بدأت بين الجيشين، وظهر تفوق الجيش الإسلامي في الجولة الأولي فهرب الكرج إلي دروب الجبال فسار خلفهم المسلمون دون علمهم بدروب هذه الجبال فوقعوا في كمين نصبه الكرج مما أحدث اضطراباً في الجيش الإسلامي أدي إلي تمكن الكرج من تشتيته وقتل وأسر عدداً كبيراً منه.

وبصرف النظر عن الاختلاف في سير المعركة، فقد كانت النتيجة واحدة وهي هزيمة الجيش الإسلامي، وأسر نحو أربعة آلاف وقتل عدة آلاف، و نجا دبيس وإيلغازي بشق النفس وخسر دبيس نحو ثلاثين ألف دينار[٣].

ولم توضح المصادر سبب مشاركة الأمير " دبيس الثاني " في قتال الكرج، لكن من الراجح أنه سار مع إيلغازي بن أرتق بسبب الحلف المعقود بينهما، بالإضافة إلي مساعي الأمير " دبيس الثاني " إلي التقرب من إيلغازي بن أرتق حتي يمنحه إمارة حلب، أكد ذلك ما عرضه الأمير " دبيس الثاني " علي إيلغازي أثناء سيرهما إلي قتال الكرج، ما جملته مائة ألف دينار ومساعدة عسكرية بالرجال ليتمكن إيلغازي بن أرتق من فتح مدينة أنطاكية[٤]، ويبدو أن إيلغازي بن أرتق قد منحه وعداً بذلك لحرصه علي استمرار الأمير " دبيس الثاني " بالسير معه لقتال الكرج. لكن إيلغازي بن أرتق سرعان ما أدرك عدم حكمة هذا الوعد؛ لذلك احتج بتمرد ولده سليمان واعتذر لدبيس

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٦٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢٧، ص ٢٠٠ .

(٤) أنطاكية: مدينة من ثغور الشام واسعة الخيرات، طيبة الهواء بينها و بين حلب يوم و ليلة وكانت من أمنع الحصون ( ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٢٤، ١٢٥؛ البجاوي: مراصد الاطلاع، جـ ١، ص ١٢٤.

عن وعده بحجة اضطراب أحوال حلب[١].

بعد عودة إيلغازي بن أرتق من قتال الكرج رأي أن وجود الأمير "دبيس الثاني "يمثل عبئاً عليه وشعر دبيس بأنه غير مرغوب فيه، فبذل جهداً كبيراً حتي عفي عنه السلطان محمود السلجوقي وأعاده إلي الحلة( ٥١٦هـ/ ١١٢٢ )[٢]. وبذلك تخلص إيلغازي بن أرتق من خطورة وجود دبيس بجواره لما تأكد من أطماعه في حلب بجانب عدم رغبة إيلغازي بن أرتق إغضاب الخليفة، ثم أن قوة الأمير " دبيس الثاني " العسكرية قد أصبحت غير مجدية بعد قتال الكرج، وما تعرض له جيشه من تشتت بجانب فقدان الأمير " دبيس الثاني " ما كان معه من مال. وبالتالي أصبح الخلاص منه هو أكبر المكاسب وقد كان.

أما عن الأتابك عماد الدين زنكي فقد أدرك أن الأمير " دبيس الثاني " ورقة رابحة في يد كل ساع للظفر علي حساب الخلافة، وقبل أن نسترسل في التعرف علي أخبار علاقة الأمير "دبيس الثاني " بزنكي يجب أن نعرف من هو أولاً . فهو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان من قبيلة ساب يو التركية[٣]، حظي والده آق سنقر بمكانة سامية عند السلطان بركياروق فولاه حلب، لكنه لقي مصرعه عقب هزيمة علي يد تتش بن ألب أرسلان عام (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م )[٤]، وهو ما جعل السلطان بركياروق يتعهد زنكي بن آق سنقر بالحماية والرعاية منذ أن توفي والده،و هو في العاشرة من عمره[٥] و قد نشأ زنكي نشأة عسكرية في رعاية عدد من قادة السلطان بركياروق مثل كر بوقا[٦] و جكرمش و جاولي سقاوو[٧].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٠.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٧٩

(٣)ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧، ص ٣٤٧٩ .

(٤) ابن الجـوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٧٦، ٧٧؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٢٣٢ – ٢٣٣،؛ و أيضاً في: الباهر، ص ١٢، ١٥؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٣٦.

(٥) ابن الأثير: الباهر، ص ١٥؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٣٦.

(٦) كربوقا: كان من كبار قادة السلطان ملكشاه، شارك في حروب السلطان بركياروق مع عمه تتش إلي جانب آق سنقر والد زنكي، و استولي علي الموصل بأمر السلطان بركياروق
و زاد نفوذه بها حتي صار قوة يعمل حسابها في شمال العراق ( الشيخ: الجهاد المقدس، ص ١١٣).

(٧)عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٣٦

وقد شارك زنكي مودود في جميع معاركه مع الصليبيين [١]، و دخل في خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، و شارك آق سنقر البر سقى في معاركه مع الأمير " دبيس الثاني " بن صدقة[٢]، كما ولاه السلطان محمود حكم البصرة لحمايتها من هجمات دبيس[٣]، كما شارك بفعالية في جيش الخليفة المسترشد بالله الذي هزم دبيس عام ( ٥١٧هـ / ١١٢٢م)[٤].

وتأكدت العداوة بين الأمير "دبيس الثاني" و عماد الدين زنكي عام( ٥٢٣هـ / ١١٢٧م)، حين طلب السلطان سنجر من السلطان محمود أن يولي الأمير " دبيس الثاني " ولاية الموصل و ينتزعها من زنكي؛ لكن معارضة الخليفة المسترشد لذلك، بجانب سرعة زنكي في إنقاذ الموقف بإقناع السلطان محمود بضرورة بقائه في الموصل لمقاومة الصليبيين أفسد علي الأمير " دبيس الثاني " منحة السلطان [٥].

وبرغم هذه العداوة والتهديد من قبل دبيس لزنكي، إلا أن الأمر سرعان ما تحول إلي تحالف ومودة بفعل حسن معاملة زنكي لدبيس حين وقع في يديه. وقد تباينت الروايات حول ظروف وقوع الأمير " دبيس الثاني " في يد زنكي فابن الأثير وابن واصل[٦] يذكران أنه في عام (٥٢٥هـ / ١١٢٩م ) وقع الأمير " دبيس الثاني " في اسر تاج الملوك بوري [٧] و سلمه بدوره إلي يد الأتابك زنكي، وتفصيل ذلك أن الأمير " دبيس الثاني " قد فر من العراق عام ( ٥٢٣هـ / ١١٢٨م ) عقب فشله في

---

(١)نفسه، ص ٣٧ .

(٢) ابـن الجـوزى: المنـتظم، جـ ٩، ص ٢٣٤؛ ابـن الأثيـر: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٩٩؛ البـاهر، ص ٢٤؛ الدودار: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٤٦٠ .

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٤؛ الباهر، ص ٢٥؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٣٧ .

(٤) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٧؛ الباهر، ص ٢٦؛ ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٣٥ .

(٥) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٠٤؛ ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٢٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٦٨؛ الباهر، ص ٤٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، جـ ١، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص ٤٥.

(٧) بوري: هو تاج الملوك بوري بن طغتكين، خلف والده في أتابكية دمشق ( أرشيد يوسف: سلاجـقة الشام و الجـزيرة، ص ١٥٠ ).

استعادة الحلة، في ذلك الوقت كان صاحب قلعة صرخد[١] قد توفي وترك في حكم القلعة جارية من سراريه، وقد أدركت الجارية أنها لن تستطيع أن تحكم القلعة بمفردها فأخذت تبحث عمن يشاركها في حكم القلعة ويتزوجها فوصف لها الأمير " دبيس الثاني " وعزه ومنعته، فراسلته في الأمر فوافقها وسار إليها، لكنه ضل الطريق فوقع في يد إحدي عشائر بنى كلب، فحملوه إلي بوري الذي اضطر إلي تسليمه إلي زنكي تحت ضغط وجود ابن بوري أسيراً في يد زنكي.

أما ابن العديم[٢] فقد ذكر أن الأمير " دبيس الثاني " عقب فراره من العراق سعي إلي محالفة الصليبيين من جديد لكنهم لم يجيبوه هذه المرة، كما كاتب تمرتاش بن إيلغازي، لكنه خشي منه لما علمه من أطماعه في حلب، وقد ضل دبيس الطريق ونزل ضيفاً علي حسان بن مكتوم – من سادات أعراب بني مكتوم قرب دمشق، فسلمه إلي بوري. كما ذكر ابن العديم – دون تأكيد - أن دبيس كان في طريقه غلي قلعة حلب ليتزوج بصاحبتها.

ومهما اختلفت الروايات أو اتفقت فقد وقع دبيس في يد بوري الذي أحسن إليه، وما أن علم الخليفة المسترشد بالله بذلك حتي أرسل إلي بوري يطلب منه التحفظ علي دبيس لحين وصول من يحمله إلي بغداد[٣] لكن زنكي كان يملك من أوراق الضغط علي بوري ما لم يملكه الخليفة نظراً لوجود سونج بن بوري أسيراً لديه، بالإضافة إلي قدرة زنكي علي تهديد دمشق وبالتالي لم يملك بوري سوي تسليم الأمير " دبيس الثاني " إلي زنكي عام ( ٥٢٥هـ / ١١٣١م )، هنا ظن دبيس أنها النهاية وأن أجله قد حان، لكنه فوجئ بحسن معاملة زنكي له[٤].

---

(١) قلعة صرخد: بلدة ملاصقة لحوران، من أعمال دمشق و فيها قلعة حصينة و يتبعها ولاية واسعة ( ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٣، ص ٢٤٤ ).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٦٨؛ الباهر، ص ٤٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، بيروت،بدون تاريخ، ص ٤٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٨٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٨٨، ٦٨٩؛ تاريخ ابن الوردي، جـ ٢، ص ٥٢؛ ابن العديم، زبدة لحلب، جـ ٢، ص ٢٤٨، ٢٤٩؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٣١؛ Claude Cahen: op.cit , p 348,349. .

وثمة سؤال يطرح نفسه ألا وهو، ما هي الأسباب التي أدت إلي هذا التحول في سياسة زنكي تجاه دبيس؟ وقد فسر البعض ذلك بأن زنكي كان خبيراً بشئون العراق والسلطنة، واستشف أن هناك صراعاً وشيكاً بين أفراد البيت السلجوقى عقب وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عام (٥٢٥هـ / ١١٣١م ) وأدرك زنكي أن الأمير " دبيس الثاني " ورقة رابحة في يد من يحسن استغلالها[١] نظراً لوجود أحد أبناء السلطان محمود لديه، ذلك الابن الذي فر به دبيس من معسكر السلطان عقب وفاة زوجة السلطان عام ( ٥٢١هـ / ١١٢٧م ) و انشغال السلطان محمود بمرض ألم به[٢] وبالتالي يمكن لمن يملك القوة أن يطالب بالعرش للصبي، و يكون هو المتصرف في شئونه نظراً لصغر سن الأمير، وهو ما يساعد علي سرعة توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين.

ولم يلبث زنكي أن تسلم ألب أرسلان بن السلطان محمود من الأمير " دبيس الثاني " ثم طالب له بعرش سلاجقة العراق – وهو طفل لم يبلغ الحلم بعد – لكن الخليفة الخليفة المسترشد بالله رفض ذلك حتي يري السلطان سنجر رأيه؛ ذلك أنه عميد البيت السلجوقى[٣] و مع اشتداد الصراع علي عرش السلطنة بين الملك مسعود وبين أخيه الملك سلجوق شاه، اتجه سنجر إلي التدخل بنفسه في الصراع لتمكين الملك طغرل بن محمد من عرش السلطنة،؛ وهو ما دفع سلجوق شاه ومسعود إلي توحيد جهودهما ضد عمهما السلطان سنجر[٤].

أمام توحد جهود الملك مسعود والملك سلجوقشاه ضد السلطان سنجر اتجه إلي طعنهما من الخلف بضربة غير متوقعة، فراسل الأتابك زنكي وطلب منه أن يقوم بالتعاون مع دبيس بالهجوم علي بغداد وأن يخطبا فيها باسم السلطان طغرل مقابل إعادة الأمير " دبيس الثانى " إلي الحلة ومنح زنكي منصب شحنة العراق و قد وقبل زنكي ودبيس وسارا لمهاجمة بغداد في وقت كان الملكين مسعود وسلجوقشاه يسيران

---

(١) عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢٠٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٦٥٥ .

(٣) ابن واصل: مفرجـ الكروب، جـ ١، ص ٤٦؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٥١.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٢٠ ؛ ابن الأثير: الباهر، ص ٤٣.

للتصدي للسلطان سنجر ومعهما الخليفة المسترشد بالله، ومع هزيمة سلجوقشاه ومسعود قرب الديناور[١] عاد الخليفة المسترشد بالله إلي بغداد فور علمه باقتراب الأتابك زنكي و الأمير " دبيس الثانى " من بغداد، واستعد لهما، وخرج لقتالهما واشتبك معهما في معركة حامية الوطيس يوم ٢٧ رجب ( ٥٢٦هـ / ١١٣٢م ) وتمكن الخليفة المسترشد بالله من هزيمتهما؛ ومرجع ذلك إلي قيادة الخليفة للمعركة بنفسه[٢].

افترق دبيس عن زنكي عقب الهزيمة، فسار الأمير " دبيس الثانى " إلي الحلة علّه يستردها لكنه فشل أمام نائب الخليفة بها، فتقلبت به الأحوال حتي رضي عنه السلطان مسعود، أما زنكي فقد عاد إلي الموصل[٣].

وظل الأمير " دبيس الثانى " يحفظ لزنكي جميل الإحسان إليه، حتي أنه أنقذه من مكيدة دبرها السلطان مسعود لزنكي ليتخلص منه، وقد علم بها الأمير " دبيس الثانى " بحكم وجوده في معسكر السلطان مسعود – بعد أن رضي عنه -، فسارع دبيس بإرسال من حذر الأتابك زنكي من المسير إلي السلطان مسعود، و من الواضح أن السلطان قد علم بذلك مما جعله يعجل بالخلاص من دبيس عام ( ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ) فقتله بزعم أنه المحرض علي قتل الخليفة المسترشد بالله، وظل زنكي يحفظ لدبيس ذكري فدائه و يذكره بكل جميل حتي وافاه الأجل[٤].

هكذا خسر الأمير " دبيس الثانى " كثيراً بتحالفه مع إيلغازي وزنكي، سواء من المال أو الرجال في ظل المعارك التي خاضها معهما لصالحهما الخاص عسي أن

---

(١) الديناور: مدينة غربي همذان، من بلاد إقليم الجبل، و بينها و بين الموصل أربعين فرسخاً ( أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤١٤ ).

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٢٦؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٣٥؛ الباهر، ص ٤٥، ٤٦؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، جـ ١، تحقيق د.عمر بن عبد السلام الترمزى، طرابلس، لبنان، ١٩٩٣، ص ٥٢٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ٤٧، ٤٨؛ اليافعى: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٩١؛ تاريخ ابن الوردي، جـ ٢، ص ٥٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٣؛ حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقى، ص ١٤٥؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ص ٥٣؛ Grousset: Op.cit., II , p . 55 , Runciman: Op.cit. II , p 149 , Gibb: op. Cit. , p 465

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٢٧.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٥٠.

يحقق بعض المكاسب، لكنه خرج من كل ذلك خاسراً، والحقيقة أن المال و الرجال يمكن تعويضهما لكن خسارته الكبرى كانت فقدان الخلافة الثقة به، بالإضافة إلي كراهية الرعية له بسبب أعمال السلب والنهب التي قام بها.

والمعروف أن بني مزيد قد اكتسبوا تأييد رعيتهم بفضل حسن معاملتهم وجهودهم لنشر العدل في ربوع أملاكهم، خاصة في عهد الأمير "صدقة الأول بن منصور " الذي أشاد بعدله السلطان ملكشاه[١]، لكن هذا التأييد أخذ يفتر تدريجياً في ظل حالة عدم الاستقرار التي عانت منها الإمارة في عهد الأمير "دبيس الثانى " بسبب سياسته لطائشة في إدارة صراعه مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة، وما تبع ذلك من أعمال سلب ونهب لأنحاء عديدة من العراق كلما اضطر إلي الفرار، فكان ينهب عاصمته ويفر بما جمع؛ حتي لا يستفيد منها جند الخلافة أو السلطنة، بالإضافة إلى الاستفادة منها في جمع الرجال لإعادة الكرة من جديد[٢].

وقد نهب دبيس مدينة الحلة مراراً لما ذكرناه من أسباب مثلما حدث عام ( ٥١٤هـ / ١١٢٥م ) حين اضطر إلي الفرار من العراق أمام السلطان محمود بسبب كثرة شكوي الخليفة المسترشد منه، فسارع الأمير " دبيس الثانى " بنهب مدينة الحلة وفر بما جمع[٣]، كذلك هاجم الحلة عام ( ٥١٥هـ / ١١٢١م ) وطرد جميع سكانها تحت تهديد السلاح، وهو الأمر الذي أدي إلي تزاحمهم علي معابر نهر سورا حتي غرق منهم نحو الخمسمائة، ولم يكتف بذلك بل هدم دار أبيه في الحلة، فصارت أثراً بعد عين، ويبدو أن دبيس قد اتبع ما يعرف في عصرنا بسياسة الأرض المحروقة، فقد أبي أن يترك شيئاً بالحلة يستفاد منه، كما نهب مدينة النيل نهباً مروعاً وهي واحدة من أغني مدن الإمارة، و فر من العراق بعد أن ترك حالة من الفزع والرعب أكدت لعامة أهل إمارته عدم صلاحيته للاستمرار في الحكم[٤].

كما ألف الأمير " دبيس الثانى " تهديد بغداد كلما سنحت الفرصة، فنجده يستغل

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ ١٦، ص ٢٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٣٩ .

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص ٢١٧، ٢١٨؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٣٩ – ٥٤٢؛ العيني: عقد الجمان، جـ ٢١، ص ٧٦٦.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٤٥.

الصراع علي منصب السلطنة بين السلطان محمود السلجوقى وبين أخيه الملك مسعود، و يهدد بغداد[١]، ولم يكتف ببغداد بل نهب مدينة البصرة مراراً، كما حدث عام ( ٥١٧هـ / ١١٢٣م)[٢] وكذلك عام ( ٥٢٣هـ / ١١٢٩م ) بشكل أكثر وحشية [٣].

هكذا فقد الأمير " دبيس الثانى " عقله، وتغلبت عليه الرغبة في السلب والنهب ولم يفرق في ذلك بين أملاكه وأملاك الخليفة أو السلطان، حتي عاصمته نفسها خربها، كل ذلك كان سبباً في فقدان الأمير " دبيس الثانى " شعبيته بين جمهور إمارته، وهو ما أدي إلي ضعف قوة الأمير " دبيس الثانى " العسكرية ـ التي تتكون أساساً من القبائل العربية التي أيدته في أول الأمر، وفقدت الثقة فيه أخيراً[٤].

هذه هي الأسباب السياسية لضعف الإمارة، وتدهور قوتها، وإن كانت هي أهم الأسباب، إلا أننا لا ننكر تأثير البنية الاقتصادية المتدهورة، التي قامت علي مجرد الجباية لا التنمية بالإضافة إلي الاعتماد بصورة رئيسية علي عوائد الحروب، و غنائمها لتكون نفقات الإمارة في معظم سني حياتها، ولم تكن الأحوال الاجتماعية بأفضل من الأحوال الاقتصادية، في ظل الفسيفساء القبلية والعرقية ـ تلك الفسيفساء سريعة التفتت، بطيئة التوحد، وما ينجم عن ذلك من آثار سلبية علي أي قوة سياسية[٥].

نهاية الإمارة:

في ظل تدهور الإمارة للأسباب سالفة الذكر، أخذت أحوالها في التراجع بصورة جعلت إصلاح أحوالها أمراً مستحيلاً مما أدي إلي دخول الإمارة في طور الاحتضار الذي استغرق الفترة المتبقية من تاريخ الإمارة بعد مصرع الأمير " دبيس الثانى " .

وقد بدأت فترة احتضار الإمارة بولاية الأمير "صدقة الثاني بن دبيس " الذي حل محل والده في زعامة بني مزيد عام ( ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ) وقد أخذ "صدقة الثاني"

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠، ص ٥٩٩ .

(٢)ابن الأثير: الكامل،جـ ١٠،، ص ٦١٠.

(٣) نفسه، ص ٦٥٥.

(٤) نفسه.

(٥) حول تفاصيل الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية راجع الفصل الرابع من الرسالة ص ص ٢١٩-٢٢٦.

علي نفسه عهداً بالثأر لأبيه، وهو ما جعله يتحالف مع الخليفة الراشد بالله بن المسترشد[١] – المطالب بدم أبيه أيضاً، ليعقدا حلفاً ضمهما وعدد من الناقمين علي السلطان مسعود، واستعد الطرفان للقتال، ولكن عندما آن أوان المواجهة ملئت هيبة السلطان قلوب المحالفين للخليفة الراشد والأمير صدقة الثاني وتركوهما في مواجهة السلطان ففر الراشد ووقع "صدقة الثاني بن دبيس " في الأسر عام (٥٣٠هـ / ١١٣٥م)[٢].

وبالرغم من موقف "صدقة الثاني بن دبيس " من السلطان مسعود، إلا أنه عفي عنه، واتخذه زوجاً لابنته عام ( ٥٣٠هـ / ١١٣٥م )[٣] سعياً لإغلاق باب الصراع مع بني مزيد، وحتي يتفرغ للأخطار الأخرى التي تهدده، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً واضحاً، فقد صار "صدقة الثاني" من أشد أنصار السلطان مسعود، كما شارك بفعالية في الحروب بين السلطان مسعود والخليفة الراشد – المخلوع – لكن صدقة راح ضحية إخلاصة للسلطان مسعود حيث تمكن الراشد من أسره و قتله عام ( ٥٣١هـ / ١١٣٦م ) [٤].

ولم ينس السلطان مسعود للأمير صدقة الثاني وفائه وضياع حياته من أجل نصرته، لذلك سارع بتقليد محمد بن دبيس وهو أخ أصغر لصدقة الثاني، أميراً للحلة، و نظراً لصغر سنه فقد جعل عليه قيماً من الأكراد و هو مهلهل بن أبي العسكر[٥]

---

(١) الخليفة الراشد بالله: هو الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد، تولي منصب الخلافة بعد مصرع والده، وسعي للثأر له من السلطان مسعود لتورطه في مصرع الخليفة المسترشد بالله مما أدي استصدار السلطان مسعود فتوى من الفقهاء بعزل الراشد عام ( ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ) ( ابن الطقطقا: الفخري، ص ٣٠٨ )

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٤٧؛ ابن واصل مفرج الكروب، جـ ١، ص ٦٤؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٤٢. .

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٤٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٤٤؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٦٢٢ .

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ٦٨؛ النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٤٤؛ ابن كثير البداية و النهاية، جـ ٦، ص ٧٢٠؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٥٢٢؛ الحسني أخبار الدولة السلجوقية، ص ١١٠.

(٥) مهلهل بن أبي العسكر: هو قائد عسكري ينتمي إلي الأسرة الجاوانية الكردية.

وكان لمحمد بن دبيس أخ أكبر منه وهو علي، لكن السلطان مسعود حدد إقامته في بغداد، نظراً لتشابهه مع أبيه دبيس في السعي إلي استعادة مجد بني مزيد الضائع[١].

وسارت الأمور في هدوء طوال العقد الرابع من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، علي بنى مزيد في الحلة، حتي استطاع علي بن دبيس من الفرار من بغداد، وجمع حوله أعراب بني أسد وهاجم الحلة واستردها من أخيه محمد و نصب من نفسه أميراً علي بنى مزيد، وعبثاً حاول السلطان مسعود أن ينحيه عن الحلة، وفي النهاية رضخ للأمر الواقع و منحه التقليد الرسمي بالولاية[٢] وبرغم ذلك ظل السلطان مسعود بن محمد علي وجل من الأمير علي بن دبيس، الذي تحين فرصة انشغال السلطان عنه وقام - علي بن دبيس – بأعمال نهب وسلب واسعة لضواحي بغداد، كنوع من استعراض القوة، مما دفع السلطان إلي إرسال قوة عسكرية لطرد الأمير "علي الثاني" من الحلة، وبالرغم من انتصار قوات السلطان في البداية، إلا أن الأمير علي سرعان ما عاد إلي الحلة واستقر بها وطرد قوات السلطان منها بمساعدة الأعراب[٣].

لوم ينس علي الثاني سعي السلطان مسعود لعزله عام ( ٥٤٢م / ١١٤٩م ) لذلك تعاون مع عدد من الأمراء الساعيين لعزل السلطان مسعود، لكن السلطان مسعود ما أن علم بحركة الأمراء حتي ترك مشاغله في فارس وسارع إلي العراق، فخشي الأمراء الخارجين عليه من عاقبة الثورة، فأجمعوا أمرهم وقبضوا علي الأمير علي وسلموه إلي السلطان بزعم أنه المحرض علي الثورة، لكن السلطان عفا عنه[٤].

لوم يطل العمر بعلي بن دبيس، فقد توفي عام ( ٥٤٥هـ / ١١٥٠م ) في مدينة أسد

---

(١) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٦٠، ٦١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧، ص ٢٥؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٦٢٢.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ١١٦؛ ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٤٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٦٢٣، ٦٢٤؛ كركوش: تاريخ الحلة، جـ ١، ص ٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ١٢٢؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٦٢٥ .

(٤) عبد المجيد أبو الفتوح: علاقات بني مزيد، ص ٢٠٩.

أباد[١] وحامت الشكوك حول طبيبه بأنه قد دس له السم في الدواء[٢] ولم توضح لنا المصادر سبب ذهاب الأمير علي إلي أسد أباد، ويرجح أنه كان في طريقه لزيارة السلطان مسعود.

وبوفاة الأمير علي انتهي النفوذ الفعلي لبني مزيد علي الحلة، وسرعان ما صارت تحت إشراف الخلافة العباسية في بغداد، في وقت تدهورت فيه أحوال سلطنة السلاجقة في العراق[٣] ولم يطل بقاء بني أسد في الحلة بعد بني مزيد؛ ذلك أنهم انحازوا إلي السلطان السلجوقى محمد بن محمد بن ملكشاه في صراعه مع الخليفة المستنجد بالله[٤] و هو ما جعل الخليفة يتفرغ لهم بعد الخلاص من السلطان، و بطردهم جميعاً من الحلة عام ( ٥٥٨هـ / ١١٦٣م ( [٥]).

(١) أسد أباد: مدينة بينها و بين همذان مرحلة واحدة من جـهة العراق ( ياقوت الحموي: معجـم البلدان، جـ ١، ص ٢٢٦ ).

(٢) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ١٥٢؛ و قد أورد ابن الجـوزي أخبار وفاة علي في أحداث (٥٤٦هـ / ١١٥١م )؛ ابن الجوزى: المنتظم، جـ ١٠، ص ١٤٦.

(٣) كركوش: تاريخ الحلة، جـ ١، ص ٤٦.

(٤) الخليفة المستنجد: هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي، تولي الخلافة عام ( ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ) حتي ( ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ) ( ابن الطقطقا: الفخري، ص ٣١٥، ٣١٦ ).

(٥) ابن الأثير: الكامل،جـ ١١، ص ٢٧٨؛ Bothworth: op. Cit. , p 70 .